الغزالى ..... حجة الإسلام

الغزالى: محمد بن محمد بن محمد الطوسى، المكنى بأبى حامد، والملقب بزين الدين، المولود سنة ٤٥٠هـ، والمتوفى سنة ٥٠٥هـ، اسم رزق صاحبه من الشهرة والذيوع لدى الخواص والعوام، وأثر فى الحياة العلمية والعملية، ما لم يتح لأحد من العلماء والمفكرين قبله أو بعده فيما نعلم.

وهو بلا ريب أحد أعلام الفكر الإسلامى، والفكر الإنسانى بوجه عام، كما أنه أحد العباقرة الذين تعددت جوانب نبوغهم وعطائهم، الجامعين للمعرفة الموسوعية التى شملت العلوم الشرعية فى عصره (إذا استثنينا علم الحديث الذى اعترف الغزالى أن بضاعته فيه مزجاة)، فقد شملت معارفه الفقه والأصول والكلام والمنطق والفلسفة والتصوف والأخلاق وغيرها، وصنف فى كل منها تصانيف تشهد له بالعمق والأصالة والتفوق وطول الباع.

وهو من ناحية أخرى أحد أقطاب التصوف و المجاهدة الروحية، ورجال التربية والدعوة إلى الله تعالى.

فهو رجل علم وعمل، ودعوة وإصلاح، وهو أحد (الربانيين) الذين عَلموا وعملوا وعلَّموا.

والغزالى مثل كثير من العظماء الذين يبرزهم القدر، فيحركون سواكن المجتمعات، بما يحدثون فيها من تغيير فى الفكر أو السلوك، فى العقيدة أو العمل، ويتركون (بصماتهم) على حياتها المعنوية أو المادية، الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية.

ومثل هؤلاء العظماء يختلف الناس فى تقويمهم اختلافاً كبيراً، فمنهم من يعلو بهم إلى قمة القمم، ومنهم من يهوى بهم إلى قاع الحضيض.

وهكذا رأينا موقف الناس من الغزالى، فجمهور المسلمين إلى اليوم يرفعونه مكاناً عَلِيًا، فى مجالى العلم والعمل، وحسبنا أنه اختص دون سائر العلماء والمفكرين بلقب (حجة الإسلام)، كما أنهم اعتبروه «مجدد القرن الخامس الهجرى».

قال فيه شيخه إمام الحرمين: «الغزالى بحر مغدق».

وقال فيه تلميذه الإمام محمد بن يحيى: «الغزالى هو الشافعى الثانى».

وقال معاصره أبو الحسن عبد الغفار الفارسى: «الغزالى حُجَّة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لسان وبياناً، ونطقاً وخاطراً، وذكاء وطبعاً».

وقال ابن النجار: «إمام الفقهاء على الإطلاق، وربانى هذه الأمة باتفاق، ومجتهد زمانه، وعين وقته وأوانه».

كما أنه فى نظرهم أحد أولياء الله وَصدِّيقىٌ الأمة، وهذا ما شهد له به كبار الصوفية مثل أبى الحسن الشاذلى، وأبى العباس المرسى وغيرهما.

قال المرسى: «أشهد له بالصديقية العظمى»(١).

نقل ذلك كله العلامة التاج ابن السبكى فى ترجمته فى (طبقات الشافعية) التى استهلها بقوله عن الغزالى: «حجة الإسلام ومحجة الدين التى يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز فى المنقول منها والمفهوم».

وقال الحافظ ابن كثير فى (البداية والنهاية):

«برع فى علوم كثيرة، وله مصنفات فى فنون متعددة، فكان من أذكياء العالم فى كل ما يتكلم فيه، وساد فى شبيبته، حتى أنه درّس بـ(النظامية) ببغداد وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء، وكان ممن حضره أبو الخطاب، وابن عقيل، وهما من رؤوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: بتحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحى، جـ٦ ص١٩٢-٢١٦.

قال ابن الجوزى: وكتبوا كلامه فى مصنفاتهم»[1].

وقال ابن العماد الحنبلى فى (الشذرات): «الإمام زين الدين، حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف، مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار فى العلم، وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه»[2].

● **الغزالى موسوعة عصره:**

وفى عصرنا كتب كثيرون عن الغزالى، وقدم فيه كثيرون رسائل وأطروحات علمية، كل فى مجال اختصاصه واهتمامه.

فالفقهاء يبحثون عنه من خلال كتبه الفقهية الشهيرة فى مذهب الشافعى، وهى أربعة كتب شهيرة، مرتبة تنازليًا من حيث السعة والتعمق، وهى: (البسيط) و(الوسيط) و(الوجيز) و(الخلاصة)، كل واحد منها لمستوى علمى معين، وفى هذا يتناشد أهل المذهب قول القائل.

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصة

وكم أود أن يبحث باحث عن فقهه غير المذهبى من

---

(١) البداية والنهاية جـ١٢ ص١٧٣، ١٧٤، ط بيروت ١٩٦٦م.
(٢) شذرات الذهب جـ٤ ص١٠ ط المكتب التجارى، بيروت.

خلال كتبه الأخرى، وبخاصة (الإحياء) حيث تحرر فى كثير من المسائل من تقليد المذهب، وبحث عن الدليل، ووازن بين الأقوال، واختار ما يراه صحيحًا، أو أصح وأقوى، كما أنه حاول أن (يفقّه) التصوف و(يصوِّف) الفقه، إن صح التعبير، وإن كان تصوفه غلب على فقهه، وعسى أن أوفق لمعالجة ذلك إذا يسر الله تعالى فى بحث مستقل.

والأصوليون يدرسونه من خلال كتبه الأصولية: (المنخول) الذى كتبه فى أوائل حياته، وانتخله من آراء شيخه إمام الحرمين، و(المستصفى) الذى غدا أحد دعائم علم الأصول، فيما بعد، وهو - كما ذكر فى مقدمته - مختصر من كتابه (تهذيب الأصول) الذى يبدو أنه فقد فيما فقد من ذخائرنا الفكرية الإسلامية.

والمشتغلون بالفلسفة والكلام والمنطق يبحثون عنه من خلال آثاره الفلسفية والكلامية والمنطقية مثل: (مقاصد الفلاسفة) و(تهافت الفلاسفة) و(المنقذ من الضلال) و(الاقتصاد فى الاعتقاد) و(فيصل التفرقة) و(قواعد العقائد) و(المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) و(معيار العلم) و(محك النظر) و(القسطاس المستقيم) و(إلجام العوام عن علم الكلام) و(جواهر القرآن) و(كيمياء

السعادة) و(معارج القدس) و(مشكاة الأنوار) وإن كان هناك من يشك فى نسبتهما إليه .

والباحثون فى التصوف والأخلاق والتربية يدرسونه من خلال موسوعته الكبرى : (إحياء علوم الدين)، وكتبه الأخرى مثل (منهاج العابدين) و(بداية الهداية) و(ميزان العمل) و(معراج السالكين) و(أيها الولد) وغيرها .

والباحثون فى الأديان والفرق يدرسونه من خلال كتبه : (القول الجميل فى الرد على من غيَّر الإنجيل) و(فضائح الباطنية) و(حجة الحق) و(مفصل الخلاف) وغيرها .

والباحثون فى الدراسات النفسية والاجتماعية يجدون مجالاً رحباً لهم من خلال كتب الغزالى المذكورة، وخصوصاً (الإحياء) الذى سجل فيه كثيراً من الظواهر الاجتماعية فى عصره، وعرض لكثير من العلل الخلقية، والآفات الاجتماعية لدى طبقات المجتمع المختلفة، وغرورهم وغفلتهم عن أدوائهم، وحلل أسبابها، ونقدها نقداً علمياً قوياً ووصف الدواء لها من طب الإسلام كما فهمه .

وهناك معارف كثيرة يجدها الدارس فى تراث الغزالى . . . أشير منها الآن إلى الجانب الاقتصادى الذى له فيه نظرات عميقة وسبّاقة، ومن تتبع (الإحياء) وحده يجد فيه

الكثير منها، ابتداء بكتاب (العلم)، مرورا بكتاب (أسرار الزكاة) وكتاب (كسب المعيشة) و(الحلال والحرام) و(البخل) و(الزهد) وغيرها، حتى قال أحد الاقتصاديين المسلمين: إن أعظم ما كتب عن النقود ووظائفها فى العصور الوسطى هو ما كتبه عنها الغزالى فى كتاب (الشكر) من (الإحياء)، حين تحدث عن نعمة الله فى هدايته الإنسان إلى استخدام النقود (الدراهم والدنانير) بدل نظام المقايضة، وما أجدر أن يكون ذلك الجانب موضوعًا لرسالة من رسائل (الدكتوراه) فى الفكر الاقتصادى الإسلامى.

لقد كان الغزالى يمثل دائرة معارف عصره، وكان أحد العمالقة الذين عرفهم تاريخ العلم والثقافة فى تراثنا السخى العريض....

ولعل من أبلغ ما قيل فى تصوير هذه الثقافة الموسوعية للغزالى كلمة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى، شيخ الأزهر فى وقته، فى تقديمه لكتاب الدكتور / أحمد فريد الرفاعى عن الغزالى، قال:

« إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا، أو الفارابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر

البخارى، ومسلم، وأحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ، والصدق، والأمانة، والدقة، ومعرفة الرجال....

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد قدرته، وقيمته... يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق، الماهر، والغزالى الفقيه الحر، والغزالى المتكلم، إمام السنة وحامى حماها، والغزالى الاجتماعى، الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكونات القلوب، والغزالى الفيلسوف، أو الذى ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطش إلى معرفة كل شىء، نهم إلى فروع المعرفة».

● **الغزالى حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة:**

ولكن أهمية الغزالى ليست فى معرفته الموسوعية، فكم فى تاريخنا من موسوعيين لم يتبوءوا مكانة الغزالى فى عقول المسلمين ومشاعرهم، ولم يفوزوا بلقب (حجة الإسلام).

وهنا نحب أن نقف وقفة لنسأل:

ما الذى جعل محبى الغزالى - وهم جمهور الأمة - يعتبرونه «حجة الإسلام» ويخصونه بهذا اللقب دون غيره؟

ثم لماذا عدوه مجدد المائة الخامسة؟ وأنه الذى ينطبق

عليه الحديث النبوى الذى رواه أبو داود والحاكم والبيهقى فى المعرفة «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» كما عدوا إمامه محمد بن إدريس الشافعى من قبل مجدد المائة الثانية؟

ولقد رأينا المؤرخين والمحدثين يختلفون فى تعيين المجددين على رؤوس القرون المختلفة، ولكنهم لم يختلفوا فى أن مجدد المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، والمائة الثانية الشافعى، والخامسة الغزالى، كما يقول السيوطى فى منظومته عن المجددين:

والثامن الحبر هو الغزالى وعده ما فيه من جدال

● **دور الغزالى فى نقض الغزو الفلسفى والباطنى:**

والذى يتبين لدراس الغزالى، ودراس عصره أن الرجل أدى مهمة متميزة فى تاريخ الفكر الإسلامى، فإن الأمة الإسلامية كانت مصابة بما يشبه الهزيمة العقلية والنفسية أمام النِّحل المنشقة، والفِرق الهدامة، والفلسفات الوافدة، والبدع الفكرية المحدثة، ولم يكن ذلك لقوة هذه الأفكار الغازية، بل لضعف أسلحة المدافعين عن العقيدة الإسلامية.

وقد أثمرت هذه الهزيمة العقلية والنفسية شكًا فى

الدين، وضعفًا فى اليقين، وانحلالا فى الأخلاق، واضطرابًا فى السياسة، وفسادًا فى الاجتماع، أشاعهُ أتباع الفلسفة، ودعاة الباطنية، وبينهما حلف ظاهر، واتصال خفى، وتعاون مشبوه، فالفلاسفة مهدوا للباطنية بتأويلهم المحكمات بل القطعيات فى الدين، وملأوا كتبهم بالإشارات والرموز وخصوصًا فى رسائل (إخوان الصفا)، والباطنية كانوا يبحثون عن أنصارهم فى طلاب الفلسفة، وفى بقايا الوثنيين، كما ذكر ذلك المستشرق (دوزى).

ولقد كان عصره بالنظر إلى الفلسفة (الإغريقية الأصول) أشبه ما يكون بعصرنا بالنسبة إلى حضارة الغرب وفلسفاته الفكرية.

لقد كانت الفلسفة هى (المعبود المقدس) لدى عِلْيَة المثقفين الذين يدعون لأنفسهم التحرر من ربقة العصبية والتقليد الفكرى، وكان هذا هو الغزو الثقافى الناجح للعقل المسلم، وللشخصية المسلمة، فى تلك الأعصار، حيث لم يستطع الغزو اليهودى عن طريق (الإسرائيليات) أن يغير من هذا العقل ويؤثر فى اتجاهه، وإن استطاع أن يكدر من صفاء ينابيع ثقافته.

أثرت الفلسفة فى تفكير الكثيرين من الأذكياء

وسلوكهم، وبدأ ذلك فى التحلل من تكاليف الدين، وأحكام الشريعة، حيث وجدوا أمامهم «طائفة يعتقدون فى أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء، بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين ووظائف الصلوات، والتوقى عن المحظورات، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين، بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطا: ﴿ **يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾.

وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامى هائلة، كسقراط وبقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وأمثالهم.... وأطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم فى وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية.... وحكايتهم عنهم أنهم منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة»(١).

---

(١) من مقدمة (تهافت الفلاسفة).

● **الرجل الذى أعده القدر لمصارعة الفلاسفة :**

هكذا برز الكفر، وبرز معه التحلل، وبرز معهما ومنهما الفوضى، يتطاير شررها إلى أوضاع المجتمع كله. وكان الميدان فى حاجة إلى فارس مقتدر مدرب، يعرف كيف يقاتل فى حلبة الفكر، مسلح بمثل أسلحة المهاجمين، قادر على أن يحارب خصومه بمثل ما يحاربونه به، السيف بالسيف والرمح بالرمح، شجاع لا يتهيب خوض معركة، ولا يرهب خصما مهما علا صيته. وكان ذلك الفارس الذى أعده القدر الأعلى، ليسد الثغرة، ويملأ الفراغ، هو أبا حامد الغزالى، اعترف بذلك القدماء والمعاصرون.

فمن القدماء: نجد التاج ابن السبكى يقول فى (طبقاته):

«جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء إلى مصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفى بجلاد مقاله، ويحمى حوزة الدين.. حتى أصبح الدين وثيق العرا، وانكشفت غياهب الشبهات»(١).

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص١٩٣.

ومن المعاصرين: نجد العلامة أبا الحسن الندوى يقول فى (رجال الفكر والدعوة فى الإسلام):

«كان العالم الإسلامى فى القرن الخامس وقد تواضعت على إضعافه الفلسفة والباطنية، وأحدثتا تبلبلاً فكرياً، يجره إلى الإلحاد فى العقيدة، والتدهور فى الأخلاق، والاضطراب فى السياسة، فى حاجة ملحة إلى شخصية قوية جديدة ترد إليه الإيمان بالعقيدة، والاعتماد على مصادر الدين الأصيلة، والاستقامة فى الأخلاق، وينتج الإنتاج الجديد الذى تكسد معه سوق الباطنية، وتركد ريحها وتعرض الإسلام عرضاً عقلياً جميلاً، تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنية، وكان لا بد لهذه الشخصية أن تكون جامعة بين العلوم العقلية والنقلية، لها فى كل منها قدم راسخة، وباع طويلة ونظر نافذ، وتكون عقلية كبيرة تناهض فلاسفة اليونان وقادة الفكر فى العالم، تجرى معهم فى رهان واحد، وتستطيع أن تدون كثيراً من العلوم تدويناً جديداً، وتقول فيها كلمتها، وتجمع إلى ذلك كله - من المواهب العلمية والكفاية العقلية - الإيمان القوى الراسخ الذى اكتسبه هذا الرجل بدراسته وتأملاته، وإخلاصه وجهاده فى سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين، ويستطيع بكل ذلك أن ينفخ فى المجتمع الإسلامى روحاً جديدة وحياة جديدة.

لقد رزق العالم الإسلامى – وهو فى أشد حاجة وأدق ساعة – هذه الشخصية الفذة فى منتصف القرن الخامس الهجرى: هى شخصية الغزالى »[1].

كان الغزالى مسلحاً بما يمكنه من منازلة كبار الفلاسفة، ومقارعة أفكارهم بمثلها، أو بأقوى منها، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

وكان مما أعانه على مهمته أنه لم يبدأ هجومه على الفلسفة إلا بعد أن درسها واستوعبها، وتضلع منها، حتى أصبح كواحد من كبار رجالها، حتى إذا رد عليها كان رده رد الخبير بها لا رد الدخيل عليها الغريب عنها، لعلمه يقينا « أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة » كما ذكر فى (المنقذ)[2]، وقد تجلت هذه الدراسة والمعرفة فى كتابه الشهير (مقاصد الفلاسفة).

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ص١٧٩، ١٨٠ ط دار القلم بالكويت.

(٢) المنقذ من الضلال بتقديم وتعليق د. عبد الحليم محمود.

كما أعانه على ذلك عقل حر متمرد، يأبى أن يقيد بأغلال التقليد ولو كانت من ذهب، ويبحث عن الحق والدليل، حيث كان منذ فجر الشباب.

أجل... كان الغزالى رجلاً طلعة، مولعًا بالبحث عن الحقيقة، والسعى وراء المجهول، والتفتيش عن اليقين الذى ينشرح به الصدر، ويطمئن به القلب، لا يقنع بالتقليد، فالتقليد لا ينتج علمًا يقينيًا، ولا يكتفى بالظن، فالظن فى قضايا الاعتقاد والأصول لا يغنى من الحق شيئًا، ولهذا شدد الحملة على التقليد والمقلدين، ومما قاله فى ذلك:

«اعلم يا أخى أنك متى كنت ذاهبًا إلى تعرف الحق بالرجال، من غير أن تتكل على بصيرتك، فقد ضل سعيك، فإن العالم من الرجال، إنما هو كالشمس، أو كالسراج، يعطى الضوء، ثم انظر ببصرك، فإن كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس، فمن عوّل على التقليد، فقد هلك هلاكًا مطلقًا»(١).

وقد نشأ فى عصر تعددت فيه النحل والمدارس العقلية، وتصارعت فيه الاتجاهات الفكرية والدينية، داخل الساحة

---

(١) معراج السالكين ص٩٨.

الإسلامية، ووجد نفسه أمام بحر لُجيّ من اختلاف المذاهب والتيارات، متلاطم الأمواج، عميق القاع، فلم يقف موقف المتفرج، ولم يرعه سعة البحر، ولا شدة الموج، ولا عمق القاع، ولا كثرة من غرق من قبل، ممن لم يحسن الغوص والسباحة، بل خاض هذا البحر الخضم خوض الماهر الجسور، لا خوض الجبان الحذور.

وما أجدرنا أن ننقل عبارته هنا بنصها من (المنقذ) لما فيها من وضوح ونصاعة، يقول مبيناً ما قاساه فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق وما استجرأ عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى بقاع الاستبصار:

«ولم أزل فى عنفوان شبابى - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين، إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين مُحِق ومبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته،

ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته،

ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته،

ولا متكلمًا إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته.

ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته،

ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته، فى تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى، وديدنى، من أول أمرى، وريعان عمرى غريزة، وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا».

وشىء آخر ساعد الغزالى على نقد الفلسفة، وإظهار تهافت الفلاسفة هو ثقته بنفسه، واعتداده بفكره، وشجاعته الأدبية، التى لم ترعها الأسماء الطنانة ولا الألقاب الضخمة، وهو يريد لقارئه أن يصحب معه هذه الروح التى لا تبالى بشهرة القائلين، بل بصواب القول، ويحاول بأسلوبه اللاذع أن يهون من تلك الأسماء وأصحابها بتعليقاته الساخرة على

مقولاتها (التى هى على التحقيق مضاحك العقلاء وعبرة عند الأذكياء).

فهو يعقب مرة على قولهم فى العقول العشرة، والأفلاك، وكيف تولد بعضها من بعض، مما لم يقم عليه دليل من عقل، ولا وحى، ولا تجربة، فيقول: «ما ذكرتموه تحكمات. وهى - على التحقيق - ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه إنسان عن منام رآه لاستدل به على سوء مزاجه»[1]!

ثم إن الغزالى حين وقف فى وجه الفلسفة الغازية لم يقف محاربًا لها باعتباره سنيًا، أو أشعريًا، أو شافعيًا، بل باعتباره مسلمًا فحسب، وهذه الفلسفة تريد أن تقتلع جذور الجميع، ولا تبقى للدين باقية، فهو لهذا يستمد أسلحته من جميع الفرق والمذاهب، ويعبىء كنانته من كل سهم يجده عند هذا المذهب أو ذاك، وهو يقول مبينًا غرضه:

«ليُعْلَم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض، ببيان وجوه تهافتهم، فلذلك أنا لا أدخل عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا مدع مثبت، فأكدر عليهم ما اعتقدوه، مقطوعًا بإلزامات

---

(١) التهافت ص١١٥.

مختلفة، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطورا مذهب الواقفية ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق إلبا واحداً عليهم، فإن سائر الفرق ربما خالفونا فى التفصيل، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين، فلنتظاهر عليهم، فعند الشدائد تذهب الأحقاد»[1].

وما أحق مسلمى اليوم أن يستفيدوا من هذا الدرس من الإمام الغزالى، فينسوا خلافاتهم الجزئية، ومعاركهم الجانبية، فيقفوا إلبا واحداً على أعداء الإسلام وما أكثرهم!

هذا إلى أن الغزالى كان يعرف ميدانه جيداً، ويعرف من عدوه، فهو لم يشن غارته على كل الفلاسفة، ولم يصوب سهامه إلى كل أنواع الفلسفة، وبهذا حدد مجال معركته.

كانت الفلسفة فى عصر الغزالى تشمل شعباً عدة، بعضها خرج اليوم من نطاق الفلسفة تماماً، إلى نطاق العلم، مثل الرياضيات والطبيعة (الفيزيا) كما كان المنطق جزءاً منها.

وكان من شعب الفلسفة ما لا يتعلق بالأخلاق والسياسة.

---

(١) من المقدمة الثالثة للتهافت.

وكان من خطر الفلسفة – كما رآه الغزالى بوضوح – يتجلى فى الفلسفة الإلهية أو (الميتافيزيقية) كما يسمونها، فهى التى تنازع الدين نزاعًا مباشرًا فى سلطانه، وتريد أن تخرجه من ملكه، فتكون كلمتها هى العليا وكلمته هى السفلى.

ومن ثم كان هجوم الغزالى منصبًا عليها وقد بين ذلك بجلاء فى (التهافت) و(المنقذ)، وحذر من الخلط بين شعب الفلسفة المختلفة، وإنكار ما لا يجوز إنكاره منها، كما يفعل بعض الأصدقاء الجهلة للإسلام.

لم يشغل الغزالى نفسه، ولم يجهد فكره ولا قلمه فى الرد على (الدهريين) ولا (الطبيعيين) من الفلاسفة، ممن ينكرون الألوهية، أو ممن يقرون بها وينكرون الآخرة، لأن أمر هؤلاء وهؤلاء مكشوف مفروغ منه، ولا يتصور من مسلم قبول فكرتهم، ولا الانخداع بها، لأن مخالفتها للإسلام واضحة وضوح الصبح لذى عينين، وقد كفاه غيرهم من الفلاسفة أنفسهم الرد عليهم.

إنما الخطر فى الفلاسفة الذين يعرفون باسم (الإلهيين) الذين يقرون بوجود الصانع، أو واجب الوجود، أو العلة الأولى، أو المحرك الأول، على اختلاف تسمياتهم، والذين لا

يجحدون الدين صراحة، ولكن يناقضون عقائده وشرائعه، ومعطياته الأساسية مناقضة جذرية بينة، لمن سبر غورهم، وهتك سترهم.

فكانت معركة الغزالى مع هؤلاء، وقد قسم فلسفتهم إلى أقسام:

قسم يجب التكفير به (وصف من ذهب إليه بالكفر)،

وقسم يجب التبديع به (وصف من ذهب إليه بالبدعة)،

وقسم لا يجب إنكاره أصلاً.

وأوضح فى (المنقذ) أقسام علومهم، وموقف الدين منها غاية الإيضاح:

١ - فأما (الرياضة) منها: فتتعلق بعلم الحساب، والهندسة، وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق شىء منها بالأمور الدينية نفيا وإثباتًا، بل هى أمور برهانية، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها، ومعرفتها.

ولكنه بين هنا أن ثمت آفتين تولدتا منها، لا لذاتها:

الأولى: أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة،

فيحسب أن جميع علومهم فى الوضوح، وفى وثاقة البرهان، كذا العلم، ثم يكون قد سمع من كفرهم، وتعطيلهم، وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقًا، لما خفى على هؤلاء مع تقدمهم فى هذا العلم، فإذا عرف بالتسامع، كفرهم وجحدهم، فيستدل على أن الحق: هو الجحد والإنكار للدين، وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه!

وإذا قيل له: الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقًا فى كل صناعة، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه، والكلام، حاذقًا فى الطب... بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم فى غيرها، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى، وفى الإلهيات تخمينى، لم يستجب لصوت العقل بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها.

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم، وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم فى الكسوف، والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك

فى برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حباً، وللإسلام بغضاً.

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى، والإثبات، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية.

فهذا حكم الرياضيات وآفاتها.

٢ - وأما المنطقيات: فلا يتعلق شىء منها بالدين، نفياً وإثباتاً، بل هو النظر فى طرق الأدلة، والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح، وكيفية ترتيبه.... إلخ.

وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون، وأهل النظر فى الأدلة.

٣ - وأما علم الطبيعيات: فهو بحث عن عالم السموات، وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة: كالماء والهواء، والتراب، والنار[1]، ومن الأجسام المركبة: كالحيوان والنبات والمعادن، وعن أسباب تغيرها، واستحالتها،

---

(١) كان الفلاسفة قديماً يعتقدون أن الماء والهواء والتراب والنار عناصر بسيطة أو مفردة، وما عداها مركبات، وقد أثبت العلم الحديث خطأ هذا كله، مما أصبح معلوماً لدى التلاميذ فى مدارسهم.

وامتزاجها، وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان، وأعضائه الرئيسية والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب فليس من شرطه أيضًا إنكار ذلك العلم، إلا في مسائل معينة، ذكرناها في كتاب: «تهافت الفلاسفة» وما عداها مما يجب المخالفة فيها، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها.

وأصل جملتها: أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة فاطرها، والشمس والقمر، والنجوم، والطبائع مسخرات بأمره، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته.

٤ - وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها.

ولقد قرب مذهب «أرسطاطاليس» فيها من مذاهب الإسلاميين، على ما نقله الفارابي، وابن سينا.

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر.

ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين، صنفنا

كتاب «التهافت»، أما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة المسلمين، وذلك فى قولهم:

«إن الأجساد لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية».

ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية، فإنها كائنة أيضاً، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به».

ومن ذلك قولهم: إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات. وهذا أيضاً كفر صريح، بل الحق أنه: «لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات، ولا فى الأرض».

ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته[1].

---

(١) ذكر الدكتور أبو ريدة فى تعليقاته على (دى بور): أن الفيلسوف الكندى، يصرح بحدوث العالم، وأنه مبتدع (بفتح الدال) وأن له مدة محدودة، قدرها له مبدعه، وهو يفنيه إن شاء.

وكذلك الفارابى، فهو يؤكد حدوث العالم من لا شىء، بل نراه يستقبح - فى كتابه (الجمع بين رأى الحكيمين) - رأى من يظن أن أرسطو يقول بقدم العالم!

قال أبو ريدة: وهذا شىء غريب جداً، لأنه يخالف الحكم السائد الذى صار - منذ عصر الغزالى - هو المعتبر فيما يتعلق بفلاسفة الإسلام! (انظر: تاريخ الفلسفة فى الإسلام تأليف دى بور ترجمة وتعليق د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ص٢٣٤ ط. خامسة، بيروت).

فلم يبق إلا ابن سينا.

فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل.

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم: إنه عليم بالذات لا يعلم زائد على الذات، وما يجرى مجراه، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك.

وقد ذكرنا فى كتاب: (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه.

٥ - وأما السياسات: فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية، والأيالة السلطانية، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء.

٦ - وأما الخلقية: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها، وأنواعها، وكيفية معالجتها، ومجاهدتها.

وإنما أخذوها من كلام الصوفية[١].

ولقد كان فى عصرهم، بل فى كل عصر، جماعة من المتأهلين، لا يخلى الله سبحانه العالم عنهم. اهـ.

---

(١) كلام الغزالى عن الفلسفة السياسية والخلقية مجمل، يحتاج إلى تفصيل وتقييد، ولا يؤخذ على إطلاقه.

وهكذا كانت رؤية الغزالى واضحة لما يقبل من الفلسفة، وما يرفض، وما وراء المقبول من آفات، وما وراء المرفوض من أخطار، فلم يحارب فى غير ميدانه، ولم يوجه أسلحته لغير عدوه.

وكان عدوه – كما رأينا – الجانب (الميتافيزيقى) فأفرغ جهده فى نقضه وبيان تهافته، حتى بعض الموضوعات التى يوافق فيها الفلاسفة مثل خلود النفس أراد أن يبين عجزهم عن إقامة الأدلة عليها، وذلك ليبرز وجه الضرورة إلى الدين.

من أجل هذا كله، كسب الغزالى المعركة مع الفلسفة، وكسدت من بعده بضاعتها التى طالما نفقت سوقها، وكانت ضربته لها – فيما يرى الكثيرون من مؤرخى الفكر – ضربة قاصمة – أصابتها فى الصميم.

أقل ما يقال فيها: إنها أزالت عنها هالة القدسية التى كانت لها فى أنفس الكثيرين قبل الغزالى، فلم تعد (الوثن) الذى يرهب ولا يمس، بل تجرأ الكثيرون عليه ويكفى الغزالى أنه وضع الفلسفة فى (قفص الاتهام)، واضطرها أن تقف (موقف الدفاع) عن نفسها، بعد أن كانت من قبل فى (موقف الهجوم).

لم يكن الغزالى يريد بهدم الفلسفة أن يبنى نظرية له،

أو مذهبًا خاصًا به، إنما يريد أن ينقض الفلسفة ليقيم الدين، وأن يعلن هزيمتها لينصر الدين أو (ليحيى علوم الدين)، وليثبت بمنطق العقل نفسه، وسلاح الفلسفة ذاتها: أن مضى العقل وحده، دون الاهتداء بنور الوحى، لا يؤدى إلا إلى التيه فى بيداء التناقض والحيرة.

● **نقض الفلسفة لا يعنى التنكر للعقل:**

ومن الظلم البين للغزالى أن يتهم بأنه إذ نقض الفلسفة، فقد نقض العقل وتنكر له، ولم يخرج عن دائرة التقليد، كما يتوهم ذلك بعض الدارسين المتعجلين ممن كتبوا عن الغزالى وقالوا: إنه بكتابه (التهافت) قد أعلى صوت (الإيمان) على (العقل).

والحق أنه أعلى به صوت (العقل) الناقد المستقل على (العقل) المتأثر المقلد، المسلم لآراء الكبار دون امتحانها، وإعلاء صوت العقل المستقل - فى نظر الإسلام - يعنى إعلاء صوت الإيمان أيضًا، ولا تنافى فى الإسلام بين العقل والإيمان.

ومن هنا ظل الغزالى يعلن أن العقل أساس النقل، فلولاه ما ثبتت النبوة والشريعة، وهو يرفض التقليد فى الاعتقاديات، ويشك فى الأفكار التقليدية الموروثة عن الفرق

والمذاهب المختلفة التى يلقنها الناس، ويأخذونها عمن سبقهم قضايا مسلمة لا تحتمل الجدل ولا الشك.

كرر هذا فى أكثر من كتاب، وفى مناسبات عدة.

وحسبنا هنا كلماته المضيئة فى كتابه (ميزان العمل)، حيث يدعو إلى طلب الحق بطريق النظر والفكر المستقل، لا بطريق التقليد الأعمى لزيد أو عمرو من الناس.

وفى ذلك يقول: «فجانب الالتفات إلى المذاهب، واطلب الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن فى صورة أعمى، تقلد قائداً يرشدك إلى الطريق، وحولك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل!، وستعلم فى عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا فى الاستقلال.... ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث، لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعا!، إذ الشكوك - يعنى فى الموروثات - هى الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال»[1].

● موقف الغزالى بين العقل والنقل:

ويؤكد الغزالى هنا مبدأ مهما - عمقه ووسعه ابن تيمية

(١) ميزان العمل: بتحقيق د. سليمان دنيا ط. القاهرة ٤٠٩.

بعد[1]، على اختلاف بينهما في تطبيقه - وهو أن العقل والشرع لا يتعارضان تعارضاً حقيقياً من الناحية النظرية، لأن كليهما نور من عند الله، فلا ينقض أحدهما الآخر، ولا من الناحية العملية، فلم يثبت أن اصطدمت حقيقة دينية بحقيقة عقلية، بل يرى الغزالي أن أحدهما يؤيد الآخر ويصدقه[2].

---

(١) في كتابه الكبير (درء تعارض العقل والنقل)، وقد نشرته أخيراً جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في عشرة أجزاء، بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، وهو الكتاب الذي عرف حينا باسم (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول).

(٢) في (معارج القدس) - وهو ينسب إلى الغزالي - تقرأ هذه الفقرة:

«اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس.

وأيضاً: فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشُّعَاعُ ما لم يكن بصر.

فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان». (معارج القدس ص٥٧، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت).

والكلام هنا شبيه بكلام الغزالي، ولكني أشك كثيراً في صحة نسبة الكتاب إليه، فنفسه غير نفس الغزالي في كتبه، وطريقة تقسيمه وترتيبه غير طريقة الغزالي، ولم يذكره أحد في كتبه ممن ترجموا له - كما أنه لا يحيل ولا يشير إلى أي كتاب آخر له، كما هو شأنه في كتبه الأخرى، كما لم يشر إليه في أي كتاب من كتبه، وجعله د. بدوي، في جملة الكتب المشكوك في صحة نسبتها للغزالي، رقم ٧٦ ص٢٤٤ من (مؤلفات الغزالي).

بل نراه فى (المستصفى) وهو من أواخر ما صنف، يعتبر العقل قاضيًا، والشرع شاهدًا، حيث يقول بعد الديباجة: « أما بعد، فقد تناطق قاضى العقل، وهو الحاكم الذى لا يعزل ولا يبدل، وشاهد الشرع، وهو الشاهد المزكى المعدل بأن الدنيا دار غرور، لا دار سرور..... ومحل تجارة، لا مسكن عمارة، ومتجر بضاعتها الطاعة، والطاعة طاعتان: عمل وعلم، والعلم أنجحها وأربحها، فإنه أيضًا من العمل، ولكنه عمل القلب الذى هو أعز الأعضاء، وسعى العقل الذى هو أشرف الأشياء لأنه مركب الديانة، وحامل الأمانة، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء، فأشفقن من حملها وأبين أن يحملنها غاية الإباء »(١).

وها هو فى (الإحياء) نراه يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية، يبين الحاجة إلى كل منهما، ويقرر أن لا غنى بالعقل عن السمع، ولا غنى بالسمع عن العقل:

« فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعًا بين الأصلين.

فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية

---

(١) المستصفى جـ١ ص٣.

كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة . . . . »[١].

ثم يحمل الغزالي بقوة على من يظن أن ثمت تناقضًا بين العقليات والشرعيات فيقول :

« وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة، نعوذ بالله منه.

بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض في الدين! فيتحير به، فينسل من الدين، انسلال الشعرة من العجين! دائمًا ذلك، لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصًا في الدين وهيهات »[٢].

وهو يصف عصابة الحق وأهل السنة في مقدمة كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) بأنهم « وحدهم الذين اهتدوا إلى أسرار ما أنزل الله على رسوله، واطلعوا على طريق التلفيق[٣]

---

(١) الإحياء جـ٣ ص١٧، ط دار المعرفة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كلمة (التلفيق) يعني بها ما نعنيه بكلمة (التوفيق) الآن، وليس يعني بها ما يوحى به اللفظ في عرفنا اليوم من الاحتيال على الجمع بين متنافرين.

obeikandi.com

بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد وإتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول، وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة و(غلاة) المعتزلة فى تصرف العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع[1]، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد ملاءمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم».

ويذكر الغزالى هنا مثالاً للعقل والشرع، فمثال العقل: البصر السليم من الآفات، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، ولا يستغنى بأحدهما عن الآخر، إلا من كان فى غمار الأغبياء «فالمعرض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس، مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان

---

(١) أنكر د. عادل العوا فى تقديم كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) على الغزالى ضمه المعتزلة إلى الفلاسفة فى العزوف عن الاستضاءة بنور الشرع، وقال: إنهم متكلمون والمتكلمون هم حراس العقيدة بالعقل.. ولكن عبارة الغزالى لا تشمل كل المعتزلة بل الغلاة منهم، فلا وجه للاعتراض.

فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما متدلل بحبل غرور»[1].

فلا يجوز إذن نصب العقل عدوا للشرع، ولا نصب الشرع عدوا للعقل.

ولا يتصور أن يثبت الشرع ما ينفيه العقل (أى ما يقطع باستحالته)، ولا أن ينفى ما يثبته العقل، أى ما يقيم البراهين اليقينية على وجوده.

والعكس ثابت أيضًا، بمعنى أن العقل لا يتصور أن يثبت ما يقطع الشرع بنفيه ولا أن ينفى ما يقطع الشرع بثبوته.

وبعبارة موجزة يرى الغزالى: أن العقل لا يمكن أن يثبت حقيقة ينفيها الشرع، وأن الشرع لا يمكنه أن يأتى بعقيدة يحيلها العقل.

وإذا وقع شيء من ذلك فلا بد أن يكون من جاهل متوهم على العقل، أو متوهم على الشرع.

وما كانت حملته فى (التهافت) على الفلاسفة إلا لأنهم توهموا على العقل، فأثبتوا باسمه، ما لا برهان عليه،

---

(١) من مقدمة كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد).

ونفوا تحت مظلته ما لا دليل على نفيه، وجاءوا بما لا يقبل فى العلوم الظنية، فكيف يقبل فى العقليات؟!.

وقد رأينا حملته فى (المنقذ) على من سماه (الصديق الجاهل) للإسلام الذى أنكر - باسم الشرع - ما قاله الفلاسفة فى الكسوف والخسوف، ونحو ذلك مما يتصل بالعلوم الرياضية، من شعب الفلسفة القديمة، مع أن أدلتها برهانية يقينية لا سبيل إلى مجاحدتها.

ومع تقرير هذا المبدأ - عدم تعارض العقل والشرع - أوضح أن لكل من العقل والشرع اختصاصًا، أو دائرة ينفذ فيها سلطانه، ولا يتجاوزه.

وجعل الغزالى من اختصاص العقل إثبات أعظم قضيتين من قضايا الفلسفة وأخطر قضايا الدين، وهما: وجود الله، وثبوت النبوة.

فوجود الله وقدرته وإرادته وعلمه إنما يثبت بالعقل، وما لم يثبت ذلك بالعقل لم يثبت الشرع[1].

وكذلك بيان أن هذا العالم من فعله الجائز فى حقه، وأن بعث الرسل من أفعاله الجائزة، وأنه قادر عليه وعلى تعريف

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد، ط دار الأمانة ص١٩٨، بيروت.

صدقهم بالمعجزات، لأنه تعالى لا يضل عباده، وأن هذا الجائز واقع.

وبهذا يدل العقل على صدق النبى، ثم يعزل العقل نفسه عندئذ، وينتهى تصرفه، ويعترف بأنه يتلقى من النبى بالقبول، ما يقوله فى الله واليوم الآخر، مما لا يستقل العقل بإدراكه، ولا يقضى أيضاً باستحالته[1].

وبهذا يرى الغزالى أن وظيفة العقل إثبات الشرع، عن طريق إثبات خالق العالم، وإثبات النبوة التى يمنحها لمن يصطفى من عباده، فإذا ثبت الوحى من الله، كان من واجب العقل بعد ذلك أن يتلقى منه، لا أن يعترض عليه، وبتعبير الغزالى: (يعزل العقل نفسه) من منصب القضاء فى أمر الدين، ليقول فى الاعتقاديات: آمنا وصدقنا، ويقول فى العمليات: سمعنا وأطعنا.

وإنما عزل العقل نفسه هنا ليتلقى من مشكاة النبوة ووحى الله إلى نبيه، لأن الوحى معصوم، والعقل لا عصمة له، والعقل وإن كان نوراً، ففرق كبير بينه وبين نور النبوة. فهداية النبوة فوق هداية العقل، أو هى - على حد تعبيره - طوراً

---

(١) انظر: المستصفى جـ١ ص٦.

وراء العقل، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات، والعقل معزول عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات[1].

وهو آثر طريق الصوفية: لأنهم - فى نظره - فى حركاتهم وسكناتهم وظاهرهم وباطنهم مقتبسون من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به[2].

وعزل العقل نفسه بعد ثبوت النبوة والوحى، لا يعنى إلغاء دوره بالمرة، فهذا لم يقل به الغزالى ولا أحد من أئمة الإسلام.

فالعقل هو المكلف بتفسير النصوص، واستنباط الأحكام منها، ومما لا نص فيه، ووضع الأصول الضابطة لذلك، وتأويل ما يحتمل التأويل منها، إذا تعارضت الظواهر مع القواطع العقلية، وإزالة التعارض بين بعضها وبعض.. إلى غير ذلك مما يعمل فيه العقل.

يقول الغزالى:

«وكل ما ورد السمع به ينظر.. فإن كان العقل مجوزاً له

---

(١) المنقذ ص١٥٩ بتقديم د. عبد الحليم محمود.

(٢) المنقذ ص١٤٣ بتقديم د. عبد الحليم محمود.

وجب التصديق به قطعًا إن كانت الأدلة السمعية قاطعة فى متنها ومستندها، لا يتطرق إليها احتمال.

ووجب التصديق بها ظنا إن كانت ظنية.

وأما ما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول.

فإن توقف العقل فى شىء من ذلك، فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز، وجب التصديق أيضًا لأدلة السمع، فيكفى فى وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة»[1].

وعلى هذا الأساس طبق الغزالى ما جاء به الشرع من سؤال القبر ونعيمه وعذابه، ومن الحشر والنشر، والصراط والميزان ونحوها من أمور الآخرة، فهى أمور ممكنة فى نظر العقل، دلت عليها قواطع السمع، فوجب التصديق بها.

وما يثيره بعض الناس من شبهات عقلية حولها، فالغزالى يردها بمنطق العقل أيضًا.

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٩٨، ١٩٩، ٧ ط دار الأمانة، بيروت.

فهذا هو موقف العقل فى مجال (العقائد) . . وربما اتهم الغزالى من بعض خصومه – ولا سيما من المدرسة السلفية – بأنه استخدم العقل فى (التأويل) أكثر مما ينبغى .

وللعقل دور كذلك لا ينكر فى مجال (العمليات) فى الفقه والأصول، التى يجتمع فيها العقل والشرع فى نظر الغزالى، وهى أفضل العلوم فيما يرى .

يقول فى مقدمة كتابه (المستصفى) وقد صنفه قبل وفاته بنحو عامين، بعد أن قسم العلوم إلى عقلى محض، كالحساب والهندسة، وإلى دينى محض كالحديث والتفسير، قال : وأشرف العلوم : ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأى والشرع، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل[1] .

لكن الغزالى يرى فى مجال (العمليات) أن هناك (منطقة محرمة) يجب على العقل، أن يعزل نفسه عنها وهى : إدراك الحكم التفصيلية للعبادات الشرعية التى ينظر إليها الغزالى على أنها – بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء – أدوية ربانية (لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة

---

(١) مقدمة المستصفى جـ١ ص٣ .

عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء، الذين أدركوا تلك الخواص، بنور النبوة، لا ببضاعة العقل....).

فلا يستطيع العقل أن يدرك لماذا كان السجود فى الصلاة، ضعف الركوع وصلاة الصبح نصف صلاة العصر، ونحو ذلك.. فهذا من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة.

قال: (ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط - بطريق العقل - لها حكمة، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق، لا عن سر إلهى فيها، يقتضيها بطريق الخاصية)[1].

وما عدا ذلك فإن العقل يصول ويجول، فى استنباط الأحكام من النصوص التى تختلف فيها الأفهام، وتتفاوت العقول، أو مما لا نص فيه عن طريق القياس وغيره من أدوات الاجتهاد.

وقارئ فقه الغزالى أو أصوله، أو كلامه، أو تصوفه، أو منطقه، يرى أنه لم يتخل عن العقل يوماً، ولكنه العقل الذى يعرف حدوده، ولا يحرم نفسه من نور أعظم منه وهو نور الوحى الإلهى، الذى قطع العقل نفسه بثبوته.

---

(١) المنقذ ص١٥٢.

بهذا ظل الغزالى وفيا للعقل، مؤمناً بمهمته فى الدين، كمهمته فى الدنيا، داعيًا إلى الجمع بين مقررات الشرائع وموجبات العقول، أو بين الشرع المنقول والحق المعقول، مع الاعتراف بأن لكل منهما سلطانا لا يتعداه.

وبهذا نتبين، أن الغزالى بهجمته على الفلسفة الإلهية التقليدية، لم يتنكر للعقل ولا حرم المسلمين من فلسفة حقيقية أصيلة حين تصدى لنقض الفلسفة اليونانية، فى صورتها العربية أو الإسلامية كما تسمى، والذين يقولون هذا غالطون أو مغالطون.

فما كانت فلسفة الفارابى وابن سينا، أو فلسفة (إخوان الصفا) فلسفة إسلامية حقًا كما يقول الباكون أو المتباكون عليها.

إن منابعها لم تكن هى الإسلام، ومنطلقها لم يكن هو الإسلام، ومقاييسها لم تُبْنَ على الإسلام، فكيف تنسب إليه، وتحسب عليه؟

كل ما يصلها بالإسلام أنها إنتاج بعض أبنائه، وأنها نشأت فى أرضه وكتبت بلغته، أعنى لغة كتابه، وهى العربية.

ولا نريد أن نصل إلى حد القول بأنها الفلسفة اليونانية كتبت بلغة عربية، كما قال قائلون، ففى ذلك تحامل وتجن ظاهر.

إنما نقول: إن جوهرها تمثل فى محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة أو بين الحكمة والشريعة، كما يعبر ابن رشد، كما نجد ذلك فى محاولات الفارابى وابن سينا، التى هدفت إلى الجمع بين آراء المدرسة المشائية المصبوغة بالأفلاطونية الجديدة - كما نقلها تراجمة السريان وغيرهم - وبين معتقدات الإسلام، وتصوراته الكلية للألوهية والنبوة والجزاء، فإذا تعارضت معطيات الدين، ومعطيات الفلسفة اعتمدت الفلسفة، وتؤول الدين! فالفلسفة عندهم أصل، والدين تابع، وما جاء به محمد رسول الله - ﷺ - يجب أن يفهم فى ضوء ما جاء به أرسطو (المعلم الأول) عند القوم!

وأدنى من ذلك محاولات (إخوان الصفا) التى كانت أقرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق، كما يقول الدكتور حمودة غرابة رحمه الله فى كتابه (ابن سينا بين الدين والفلسفة).

● **الغزالى الفيلسوف:**

والحق أن الغزالى فى (إحيائه) و(منقذه) و(مستصفاه) وبعض كتبه الأخرى - على ما فيها من مآخذ - أقرب إلى تمثيل (الفلسفة الإسلامية) من الممثلين الرسميين التاريخيين لها.

كما أنه فى كثير من نظراته النفسية والاجتماعية والتربوية يعد صاحب فلسفة متميزة هى عند التحقيق أهم من الفلسفة التقليدية المستمدة فى أصولها من الإغريق.

إن الغزالى بهدمه الفلسفة قد غدا فيلسوفًا، ولكن بمعيار آخر، ومن منطلق آخر، إنه لم يعد تابعًا، بل أصيلاً مستقلاً، إنه فيلسوف وإن لم يرد أن يكون فيلسوفًا، ولعله لو سئل - كما قال الأستاذ العقاد[1] - أأنت فيلسوف؟ لأنكر ذلك.

وهذا أمر اعترف به كثيرون فى الشرق والغرب، حتى قال الفيلسوف الشهير (رينان): «لم تنتج الفلسفة العربية فكرًا مبتكرًا كالغزالى»[2] يريد أن (الفلاسفة الإسلاميين) قبله وبعده كانوا أتباعًا للفلسفة الأرسطية أو الأفلاطونية الحديثة، وأن الغزالى وحده هو الذى ثار عليها، واتخذ له نهجًا خاصًا.

وقد رأى كثير من علماء المسلمين قديمًا أن الغزالى رغم حربه للفلسفة لم يزل متأثرًا بها، حتى قال تلميذه القاضى ابن

---

(١) فى محاضرته فى الأزهر عن (فلسفة الغزالى).

(٢) عبده الشمالى: دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها ص٥٥٣.

العربى : « شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، ثم أراد أن يتقيأهم، فما استطاع »[١] !

وحسبنا أن أحد دعائم الفلسفة وهو (المنطق)، قد تبناه الغزالى ودافع عنه، وأضفى عليه من ثقافته الإسلامية، وكتب فيه عدة كتب، مثل (معيار العلم) و(محك النظر) و(القسطاس المستقيم) وقد أعلن أن تعلمه فرض كفاية، كما جعله مقياساً لصحة العلوم كلها، حتى علوم الدين نفسها، وذهب إلى أن من فقد هذا المعيار لا ثقة بعلمه، حتى جلب ذلك عليه سخط كثير من علماء المسلمين من مختلف المدارس والعقليات، من ابن الصلاح، إلى ابن تيمية، الناقد المنهجى الموضوعى للمنطق الأرسطى.

وإذا كان صحيحاً ما نادى به شيخ مؤرخى الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث – وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق – من اعتبار (علم أصول الفقه) أحد أركان هذه الفلسفة بل فى مقدمتها – وهو صحيح ومسلم به الآن من دارسى الفلسفة – فالغزالى ولا شك أحد أعمدة هذا العلم ومراجعه، وحسبنا فيه (المستصفى).

---

(١) سيرة الغزالى لعبد الكريم عثمان، نقلاً عن (مقارنة بين الغزالى وابن تيمية)، للدكتور / محمد رشاد سالم.

ويحق ما قاله الأستاذ العقاد رحمه الله عن (فلسفة الغزالى) فى محاضرته بالأزهر: لو سئل الغزالى: هل أنت فيلسوف؟ لأنكر انتسابه إلى القوم الذين يبطل حجتهم، ويدحض آراءهم، ويقضى على أقوالهم بالتهافت، وهو الضعف الذى لا يقوى المنصف به على التماسك والثبوت.

لكننا ننظر إلى أقوال الغزالى فى مناقشته للفلاسفة، فنعلم أنه ناقش الفلسفة بالفلسفة، وحطم السلاح بسلاح مثله، بيد أنه أنفذ وأمضى، فهو على هذا فيلسوف أقدر من الفلاسفة الذين أبطل حجتهم.

والواقع أن حجة الإسلام رضى الله عنه لم تكمل له أداة قط كما كملت له أداة الفلسفة، فهو عالم، وهو فقيه، وهو متكلم، وهو صوفى ولا مراء، ولكن هذه المطالب لا تستغرق كل ملكاته ووسائله إلى المعرفة، قد يبلغ فيها غايتها ببعض تلك الملكات والوسائل، وتبقى له بعدها ملكة لا ضرورة لها فى غير الفلسفة وحدها، وأوجز ما يقال عنها بكلمة واحدة: أنها هى ملكة التجريد.

ويرى العقاد أن تصوف الغزالى – الذى قطع معه علائق قلبه بالدنيا، وهرب به من الشواغل والعلائق، وأقبل بكنه همته على الله، ووصل معه إلى حالة يستوى فيها عند القلب

وجود كل شيء في هذا الكون وعدمه - هذا التصوف قد منحه قدرة على التفكير الفلسفي الحر، والتأمل العقلي العميق، الذي لا يتاح مثله لمن يفكر وهو رهن محابس الماديات والشهوات.

وبهذه القدرة على التجرد من النفس وعاداتها ومألوفاتها أصبح الغزالي أقدر على (التجرد الذهني) من المتصوف الذي لا يشغل فكره باستقصاء البحث، ومن الفيلسوف الذي لا يروض نفسه على الفرار من تحكم (الذاتية) ولوازم الأشياء التي لا تفارقها في حسه وفي إدراكه، فلا جرم، كانت السليقة الصوفية فيه أداة يغلب بها الفيلسوف الذي لا تصوف عنده، وكان التفكير المنتظم عنده أداة تعينه على الفهم حيث يقنع المتصوف بالتسليم ويستريح إليه.

ويختم العقاد محاضرته عن الغزالي بهذا التساؤل: هل كان إمامنا رضي الله عنه فيلسوفًا أم متصوفًا؟[1].

ويجيب بقوله:

«إنه كان قدوة للفلاسفة، ونموذجًا من نماذج التفكير الرفيع، نتعلم منه أن الفلسفة أداة لا تتم بغير قسط من

---

(١) فلسفة الغزالي - محاضرة ألقاها العقاد في قاعة المحاضرات بالأزهر في ١٧ رمضان ١٣٧٩هـ.

التصوف، لأن التصوف قدرة على انتزاع النفس من المألوف، وتلك قدرة لا يستغنى عنها الفليسوف المفكر ولا الفيلسوف الحكيم».

● **الغزالى والباطنية:**

وكان للغزالى – بجوار دوره فى نقض الفلسفة – دور آخر فى الرد على فرقة (الباطنية) التى تدرعت بالفلسفة، وظهرت فى مظهر دينى وسياسى، فكانت – كما يقول الأستاذ الندوى – أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش فى برجها العاجى بعيداً عن الشعب والجمهور، وكانت – كما يصفها الأستاذ أحمد أمين – كالسفارات الأجنبية، لا شأن لها بالسياسة الداخلية، والشئون الاجتماعية، ولا صلة لها بجمهور الناس(١).

والباطنية – كما ذكر الغزالى ومن بعده ابن الجوزى – قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع، وإبطال النبوة، والعبادات، وإنكار البعث، ولكنهم لا يظهرون هذا فى أول أمرهم، بل يزعمون أن الله حق، وأن محمداً رسول الله،

---

(١) رجال الفكر والدعوة ص٢١٦.

وأن الدين صحيح، لكنهم يقولون: إن للدين سراً وباطناً غير ظاهره الذى يعرفه عامة الناس[1].

وذكر ابن الجوزى السبب الباعث لهؤلاء على إنشاء هذه النحلة، وبين أن غرضهم هو هدم الإسلام، تحت ستار الدعوة إلى الإمام المعصوم، والأسرار الباطنة.

كما بين حيلهم وطرائقهم فى اجتذاب الناس إلى مذهبهم، كل حسب ميوله واتجاهاته الفكرية والشعورية والسلوكية.

فمن كان مائلاً إلى الزهد دعوه إلى الأمانة والصدق وترك الشهوات.. ومن كان مائلاً إلى الخلاعة، قرروا فى نفسه أن العبادة بله، وأن الورع حماقة، وإنما الفطنة فى اقتناص اللذات من هذه الدنيا الفانية..[2] وهكذا يخاطبون كل ذى مذهب بما يليق به، إلى أن يقع فى أحابيلهم، ويصبح رهن إشارتهم.

وخطر هذه الفرقة أنها تهدم من الداخل، وتعمل فى الخفاء، وتضمر الكيد للإسلام، وتتظاهر إليه، وتساند كل مغير على أمة الإسلام، ودار الإسلام، وتجمع الأنصار، وتدربهم على القتل والقتال، وفن الاغتيال، وتستخدم سلاح الإرهاب بمهارة منقطعة النظير.

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٠٢. (٢) نفسه ص ١٠٦، ١٠٧.

وقد انضم إلى هذه الفرقة أعداد من الناس بدوافع مختلفة.

منهم من دفعه إليهم بغض الدولة العباسية القائمة، وما يعانونه فى ظلها من جور.

ومنهم من دفعه إليهم حب آل البيت والغضب لهم ممن ظلموهم، وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسمهم وتدعو إليهم.

ومنهم من اندفع وراء إشباع الرغبات، والتهام اللذات، التى يتيحها هؤلاء لأتباعهم، ويبررونها باسم الدين كما يتصورونه ويصورونه.

ومنهم من دفعته الرغبة فى الإسرار والغوامض، والرموز، التى يقوم، عليها دين هؤلاء، ولا سيما مع انتشار الحرفية والظاهرية عند الآخرين، والتمسك بالقشور وإنكار كل ما زاد عليها[1].

ومهما كانت الدوافع والأغراض فقد كسبت الباطنية شيعًا وأنصارًا يتحكم فيهم رؤساؤها، ويحركونهم كالخاتم فى الأصبع، ويستعملونهم فى الإرهاب والتدمير، حتى استفحل أمرهم بأصبهان وآل الأمر - كما قال ابن الجوزى - إلى أنهم

---

(١) رجال الفكر والدعوة ص١٧٤.

كانوا يسرقون الإنسان، ويقتلونه ويلقونه فى البئر، وكان الإنسان إذا دنا وقت العصر ولم يعد إلى منزله أيسوا منه[1].

وبهذا غدت الباطنية مؤسسة سرية عسكرية خطرة، مغلفة بغلاف علمى فكرى يخدع بريقه الأبصار، بدعوى أنهم أهل الأسرار، ولديهم وحدهم الإمام المعصوم، الذى لا يصلح العالم، ولا تستقيم الحياة بدونه!

ولم يكن هناك أحق ولا أقدر من الغزالى بالرد عليها، والكشف عن عوارها، وتفنيد دعاويها، ونقض مبانيها من قواعدها، وذلك لجمعه بين العلوم الشرعية، والعلوم العقلية من الفلسفة، والمنطق، والكلام، وتبحره فيها جميعًا، ولهذا كتب عدة كتب فى الرد عليهم على فترات مختلفة، منها (فضائح الباطنية) الذى أثنى عليه الإمام ابن تيمية على الرغم من نقده للغزالى فى مواضع متعددة، ونقل منه ابن الجوزى وغيره.

وقد قال فيهم كلمته التى سارت مسير الأمثال: «ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض»، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة فى شىء، إنما هو قناع يخفون وراءه كفرهم، وكيدهم لأهل الإسلام جميعًا: سنيهم وشيعيهم.

---

(١) تلبيس إبليس ص ١١٠.

وله فى الرد عليهم أكثر من كتاب أشار إليه فى (المنقذ من الضلال) حين عرض لمذهبهم، وما فيه من فساد وتلبيس، وبين أنه لا حاصل عندهم، ولا طائل تحت كلامهم، ولولا نصرة الصديق الجاهل للحق، ما انتهت هذه البدعة الباطلة – مع ضعفها – إلى ما انتهت إليه.

فمن الكتب التى أشار إليها:

كتاب (حجة البيان) ويسمى أحيانًا (حجة الحق).

وكتاب (مفصل الخلاف).

وكتاب (الدرج المرقوم بالجداول).

فضلاً عن كتاب (القسطاس المستقيم) وهو كتاب مستقل بنفسه، مقصوده: بيان ميزان العلوم، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم، لمن أحاط به.

وذكر له أيضًا كتاب (قاصم الباطنية)[1] و(مواهم الباطنية)، وكلها أسهمت فى المعركة ضد هؤلاء الذين كانوا وبالاً على العباد والبلاد.

ومما يذكر للغزالى هنا: استمراره على نقد هذه الطائفة، وكشف اللثام عن تناقض أفكارها، وفضائح أعمالها، وسوء

---

(١) أشار إليه الغزالى فى كتاب (جواهر القرآن) ص٢١.

نواياها، برغم ما كان معلومًا فى ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير، الوزير نظام الملك وفخر الملك – ابن نظام الملك – أيضًا، وكان فخر الملك هو الذى ألح على الغزالى فى معاودة التدريس، فلم يجد بدًا أمام ضغطه من الإذعان.

وكان الباطنية يهددون كل من يرونه خطرًا عليهم – من رجال الملك، أو رجال العلم – بالانتقام، فى صورة طعنة من خنجر، أو سم يدس فى طعام، أو غير ذلك من الأساليب التى أتقنوها، ونفذوها بكل دقة.

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على شجاعة الغزالى فى صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له.

الغزالى يدعو إلى تحرير الفكر من العصبية والتقليد:

وللغزالى مواقف أخرى، تجلى شجاعته الأدبية، وقوته فى الحق وإن خالف المألوف والمشهور، فقد كان القرن الخامس الهجرى – الذى ظهر فيه الغزالى – قد استقرت فيه مذاهب وأقوال فى الكلام، والفقه، والتصوف والسلوك.

واشتهرت أسماء كبيرة فى كل هذه المجالات، أصبح لها

أتباع ومقلدون، لا يقبلون من أحد الخروج عليها فى كثير أو قليل، بل لا يقبلون مجرد نقدها أو مناقشتها.

وبذلك رسخت العصبية والتقليد للمذاهب والأقوال الموروثة، وغدت (حمى محرما) لا يجوز الاقتراب منه، وإلا هاج عليه الهائجون، ورموه بالرماح والسهام من كل جانب.

وكان الناس فى حاجة إلى شخصية كبيرة لها وزنها، تحرك العقول الراكدة من سكونها، وتقاوم تحجر الفكر، وتدعو إلى التحرر من أغلال التقليد والعصبية. شخصية لا تتهم بالقصور فى علمها، ولا بالعجز فى فكرها، ولا بالوهن فى دينها، ولا بالتفريط فى سلوكها، ولا تبالى بما يقول الناس عنها.

وكان الغزالى – بمؤهلاته العلمية والعملية، وبتاريخه فى مقاومة الفلاسفة والباطنية، وبكفاحه فى سبيل الوصول إلى اليقين والفناء عن النفس فى مرضاة الله – خليقا أن يسمع صوته، ويلمس أثره، فى هذا الميدان.

فكان هذا مأثرة أخرى من مآثر الغزالى، دخل دائرة الفكر الإسلامى: الدعوة إلى التحرر من العصبية، والانطلاق من سجن التقليد، ورفض الجمود على آراء زيد أو عمرو من البشر غير المعصومين، والانبهار بأسماء الكبار، مهما تكن منزلتهم فى العلم، وشهرتهم فى الدين.

وهذا ما ذكره وكرره فى كثير من كتبه، وفى مواضع متعددة منها، وقد ذكرنا بعض ما يشهد لذلك، عندما تحدثنا عن موقفه من (العقل) بعد موقفه من (الفلسفة) .

ولا بأس أن نؤكده هنا مرة أخرى، بذكر بعض (الركائز) التى يعتمد عليها موقفه فى مقاومة تيار التقليد الغالب فهو :

أولاً :

يدعو للنظر إلى القول لا إلى قائله، والاعتداد بدليل الرأى لا بشهرة صاحبه، وكم نقل وكرر حكمة الإمام على كرم الله وجهه، التى قالها لكميل بن زياد : لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله .

وطالما قال – إذا اعترض عليه بأنه خالف المشاهير من قبله – : من عرف الحق بالرجال، حار فى متاهات الضلال[1]!

وهو بهذا يدعو إلى النظرة (الموضوعية) للأشياء والأفكار، فلا نقبل الباطل لأنه جاءنا ممن نحب، ولا نرفض الحق لأنه جاءنا ممن نكره، فالمبطل لا يبعد أن ينطق بحق، والمحق لا يبعد أن يتكلم بباطل . ولما اعترض بعض الناس على كلمات له فى بعض تصانيفه فى أسرار علوم الدين، زاعمين

---

(١) الإحياء : كتاب العلم .

أنها من كلام (الأوائل) – يعنون الفلاسفة القدماء – رد عليهم الغزالى بأن بعضها من مولدات الخواطر، وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية، ثم قال:

« وهب أنها لم توجد فى كتبهم، فإذا كان الكلام معقولاً فى نفسه، مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغى أن يهجر، أو ينكر؟.

فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن، وأخبار الرسول، وحكايات السلف، وكلمات الحكماء والصوفية، لأن صاحب كتاب (إخوان الصفا) أوردها فى كتابه، مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا، بإيداعهم إياه فى كتبهم!

وأقل درجات العالم: أن يتميز عن العامى الغمر فلا يعاف العسل، وإن وجده فى محجمة الحجام، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل... ».

ثم يبين الغزالى هنا أن رفض الشىء الحسن من أجل وعائه وظرفه – ومثله رفض الحق من أجل قائله – وهم باطل،

وهو غالب على أكثر الخلق، فمهما نسبت الكلام، وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم، قبلوه، وإن كان باطلاً، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم، ردوه، وإن كان حقًا.

فأبدا يعرفون الحق بالرجال، ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال[1]!!

وثانيًا:

يدعو ويكرر الدعوة إلى التشكيك فى الأقوال الموروثة والمذاهب المتبعة ليزيل عنها ما أحيطت به مما يشبه (القداسة) أو (العصمة) ويضعها تحت محك الامتحان، ليؤخذ منها ويترك.

وقد مر بنا قوله فى (ميزان العمل):

«ولو لم يكن فى هذه الألفاظ إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعا!، فإن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال...».

وقد طبق الغزالى بنفسه هذا المنهج، فبحث وناقش، وأخذ ورد، وكانت له أفكاره الخاصة، ومواقفه المستقلة، التى خالف فيها من قبله.

---

(١) المنقذ من الضلال.

خالف الأشعرى فى بعض مسائل الكلام.

وخالف إمامه الشافعى فى بعض مسائل الفقه، كما نرى ذلك فى (الإحياء) فى مسألة (المياه) التى قال: كنت أود أن يكون مذهبه فيها كمذهب مالك، وأيد مذهب مالك بسبعة أدلة[١].

وكذلك أيد مذهب أبى حنيفة فى جواز بيع المعاطاة - دون إيجاب وقبول - فى غير النفائس[٢].

وخالف المتصوفة فى شطحاتهم وتهويماتهم غير المنضبطة بالشرع ولا العقل.

فقد أنكر فى (الإحياء) الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهى بقوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسن بن منصور الحلاج، الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق!.... فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره،

---

(١) انظر: الإحياء: كتاب الطهارة.

(٢) انظر: الإحياء: كتاب آداب الكسب والمعيشة.

وعظم فى العوام ضرره، حتى من نطق بشىء منه، فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة![1].

وكانت مخالفته للأشعرى مما أشار حوله غباراً كثيفًا حتى اتهم بالزيغ، بل بالكفر، حيث طعن عليه طائفة (من الحسدة) بأن فى بعض كتبه ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وأن العدول عن مذهب الأشعرى – ولو فى قيد شبر – كفر!، ومباينته – ولو فى شىء نزر – ضلال وخسر!

وقد واجه هذه الحملة العنيفة بتصنيف كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة). وكان مما قاله فيه مخاطبًا صاحبه ومريده الذى وجه إليه رسالته هذه:

«فخاطب نفسك وصاحبك، وطالبه بحد الكفر، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى، أو مذهب المعتزلى، أو مذهب الحنبلى أو غيرهم، فاعلم أنه غر بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان! وناهيك حجة فى إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه، إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له

(١) انظر: الإحياء جـ١ ص٣٦.

فرقًا وفصلاً، ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعرى، ويزعم أن مخالفته فى كل ما ورد وصدر كفر من الكفر الجلى، فاسأله: من أين ثبت له كون الحق وقف عليه، حتى قضى بكفر الباقلانى، إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى، وزعم أنه ليس هو وصفا لله تعالى زائدًا على الذات؟ ولم صار الباقلانى أولى بالكفر لمخالفته الأشعرى من الأشعرى مخالفته الباقلانى؟! ولم صار الحق وقفا على أحدهما دون الثانى؟ أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان؟ فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة، فليكن الحق للسابق عليه! أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم؟ فبأى ميزان ومكيال قدر درجات الفضل، حتى لاح له أن لا أفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده؟ فإن رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم! وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة؟»[1].

وعلى هذا النحو من القوة والتدفق البصير، القائم على النظر العلمى الخالص يناقش الغزالى المعظمين لأقوال السابقين، المنكرين لكل من خالفهم فى نقير أو قطمير، وفى هذا السياق يقوله لصاحبه:

---

(١) فيصل التفرقة.

« ولعلك – إن أنصفت – علمت أن من جعل الحق وفقًا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب، أما الكفر، فلأنه نزله منزلة المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الإيمان إلا بموافقته، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته، وأما التناقض، فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر، وأن لا ترى فى نظرك إلا ما رأيت، وكل ما رأيته حجة، وأى فرق بين من يقول: قلدنى فى مجرد مذهبى، وبين من يقول: قلدنى فى مذهبى ودليلى جميعًا، وهل هذا إلا التناقض؟ »[1].

وثالثًا:

يحاول أن يضع (معايير) ثابتة، لتقويم الفكر، وتقويم السلوك ليرجع إليها المتجادلون ويحتكم إليها المختلفون.

وفى هذا وضع جملة من الكتب تدل عناوينها على مضمونها، مثل (معيار العلم) و(القسطاس المستقيم) و(محك النظر) و(ميزان العمل).

ولعل هذا كان وراء اهتمامه بعلم (المنطق) واعتباره مقدمة للعلوم كلها، وإيجاب تعلمه على سبيل الكفاية! لأنه يراه الآلة القانونية التى تعصم مراعاتها الذهن عن الزلل فى الفكر.

---

(١) فيصل التفرقة.

والمقصود هنا أنه كان معنياً بوضع (المعيار) أو (الميزان) الذى يمكن بواسطته تقويم الأقوال والمذاهب، وأدلة كل منها، وهو يزعم أنه بذلك مستطيع أن يرد الناس إلى الحق لو أصغوا إليه، واحتكموا إلى ميزانه، كما أشار إلى ذلك فى مناقشته للباطنية فى (المنقذ من الضلال).

● **الغزالى يقاوم موجة الغلو فى التكفير :**

ومن مآثر الغزالى التى تسجل فى ديوان حسناته وما أكثرها: وقوفه ضد تيار (الغلو فى التكفير) الذى كان يسود مناخ الفرق الإسلامية فى عصره، وقبل عصره، فكل فرقة تكفر من يخالفها فى الرأى، وتعتقده مكذباً لله ولرسوله، ومعنى هذا إهدار دمه وماله، واعتقاد استحقاقه الخلود فى النار!

ولكن الغزالى عارض هذا الإسراف بقوة، وأوضح ما يكون ذلك فى كتابيه: (الاقتصاد فى الاعتقاد) و(فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة).

نقرأ قوله فى (الاقتصاد) :

« والذى ينبغى أن يميل المحصل إليه: الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول (لا إله إلا الله، محمد

رسول الله) خطأ، والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم، وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها »(١).

إلى أن قال:

« فلم يثبت لنا أن الخطأ فى التأويل موجب للتكفير، فلا بد من دليل عليه، وثبت أن العصمة مستفادة من قول (لا إله إلا الله) قطعًا، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع وهذا القدر كاف فى التنبيه على أن إسراف من بالغ فى التكفير ليس عن برهان، فإن البرهان إما أصل، أو قياس على أصل، والأصل هو التكذيب الصريح، ومن ليس بمكذب فليس فى معنى الكذب أصلاً، فيبقى تحت عموم العصمة بكلمة الشهادة »(٢).

ويعود لهذا الموضوع فى (فيصل التفرقة) فيوصد الباب فى وجه الغلاة فى (التكفير) بمجرد التأويل.

كما شدد النكير على المتعصبين من المتكلمين الذين

---

(١) ص٢٢١ ط. بيروت.

(٢) الاقتصاد ص٢٢٣، ٢٢٤ ط. بيروت.

فرضوا على عوام المسلمين أن يعرفوا العقائد الدينية على طريقة علماء (الكلام) ومن لم يعرفها بأدلتهم فهو فى نظرهم كافر.

يقول الغزالى منكرا عليهم:

« من أشد الناس غلواً وإسرافًا: طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا: أن من لا يعرف (الكلام) معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التى حررناها، فهو كافر!

فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده - أولا - وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين.

ثم جهلوا ما تواتر من السنة - ثانيًا - إذ ظهر لهم فى عهد رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضى الله عنهم، حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب، كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه »[1].

ثم بين أن مدرك الإيمان ليس هو أدلة المتكلمين وترتيبها، بل هو نور يقذفه الله فى القلب، تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها وتارة بمشاهدة حال رجل متدين

---

(١) فيصل التفرقة.

يسرى نوره إليه عند صحبته ومشاهدته، وتارة بقرينة حال، ونحو ذلك.

بل ربما اتهم هنا بالمبالغة فى الدفاع عن الطوائف المخالفة لأهل السنة، استمع إليه يقول:

«لعلك تشتهى أن تعرف حد الكفر... وإنى أعطيك علامة صحيحة تطردها وتعكسها لتتخذها نظرك، وترعوى بسببها من تكفيرالفرق، وتطويل اللسان فى أهل الإسلام، وإن اختلفت طرقهم، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله، صادقين بها، غير مناقضين لها، فأقول:

الكفر هو تكذيب الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى شىء مما جاء به، والإيمان تصديقه فى جميع ما جاء به.

واعلم أن هذا الذى ذكرناه، مع ظهوره، تحته غور، بل تحته كل الغور، لأن كل فرقة تكفر مخالفها، وتنسبه إلى تكذيب الرسول - عليه الصلاة والسلام - فالحنبلى يكذب الأشعرى، زاعمًا أنه كذب الرسول فى إثبات «الفوق» لله تعالى فى الاستواء على العرش، والأشعرى يكفره، زاعمًا أنه مشبه، وكذب الرسول فى أنه ليس كمثله شىء.

والأشعرى يكذب المعتزلى، زاعمًا أنه كذب الرسول فى جواز رؤية الله تعالى وفى إثبات العلم والقدرة والصفات له.

والمعتزلى يكفر الأشعرى، زاعمًا أن إثبات الصفات تكثير للقدماء، وتكذيب للرسول فى التوحيد.

ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد «التكذيب» و«التصديق» وحقيقتهما، فينكشف لك غلو هذه الفرق وإسرافها فى تكفير بعضها بعضاً.

قالوا: إن الإيمان إنما يتطرق إلى الخبر، بل إلى المخبر، وحقيقته الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده، إلا أن للوجود خمس مراتب، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب.

فإن الوجود: ذاتى، وحسى، وخيالى، وعقلى، وشبهى.

فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة، فليس بمكذب على الإطلاق.

أما الوجود الذاتى: فهو الوجود الحقيقى الثابت خارج الحس والعقل.

وأما الوجود الحسى: فهو ما يتمثل فى القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين، وذلك كما يشاهد النائم.

وأما الوجود الخيالى: فهو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك..

وأما الوجود العقلي: فهو أن يكون للشيء روح، وحقيقة، ومعنى، فيتلقى العقل حقيقة معناه، دون أن يثبت صورته في خيال أو حس، أو خارج كاليد مثلا، فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة، ولها معنى هو حقيقتها، وهو القدرة على البطش.

والقدرة على البطش هي اليد العقلية.

وأما الوجود الشبهي: فهو ألا يكون نفس الشيء موجوداً، لا بصورته ولا بحقيقته، لا في الخارج، ولا في الحس، ولا في الخيال، ولا في العقل، ولكن يكون الوجود شيئًا آخر يشبهه، في خاصة من خواصه، وصفة من صفاته»[1]... إلخ.

والغزالي يبدو هنا - بالنظر إلى المخالفين - محاميًا، أكثر منه قاضيًا حتى اعتبر الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول به - وجوداً خياليًا! أو عقليًا أو شبهيًا - كافيًا في نفي التكذيب والكفر عمن قال به. وهذه غاية في التسامح ربما جره إلى أن يتهم هنا بالتفريط.

يبدو أن مما يذكر للغزالي هنا: أنه - مع هذا التسامح الرحب والتماس المخارج المعقولة للمخالفين، لإبقائهم في دائرة

---

(١) فيصل التفرقة.

الإسلام – لم يفرط فى حماية حقائق الدين من المقولات التى تمس جوهره، وتجافى المعلوم بالتواتر من عقيدته وشريعته، من أقاويل الفلاسفة أو من شطحات الصوفية، حيث لم يجد وجها لتأويل كلامهم بأحد وجوه التأويل التى ذكرها حتى قال عن بعض المتصوفة الذين زعموا أنهم وصلوا بالرياضة الروحية إلى حال تسقط عنهم فرائض الدين وشعائر عبادته: إن قتل الواحد منهم أفضل من قتل مائة كافر أصلى، لأن الكافر مفضوح بكفره وهذا يهدم الشرع من الشرع[1]!.

● **رسالة الغزالى فى تجديد الدين وإحيائه:**

كان الغزالى يشعر فى أعماقه أن الأقدار العليا ناطت به مهمة تجديد الدين وإحيائه على رأس المائة الخامسة.

فلم يعد يكفى عمله (الهدمى) فى إنزال اللسفة من عرش غرورها، وإيقاف الفرق المنشقة عند حدها، بل لا بد من عمل (بنائى) آخر، لحساب الإسلام، بعد إزالة أنقاض الجاهلية.

كان هذا العمل البنائى يتمثل فى أمرين:

١ – إحياء العلوم الدينية الحقيقية، خلفًا للعلوم الفلسفية والمبتدعة.

---

(١) المصدر السابق.

٢ - إحياء الشعور الديني، الذي يدفع إلى العمل بالدين، عملاً خالصاً غير مغشوش ولا مدخول.

ومن قرأ مقدمة (الإحياء) يلمس هذا الوعي أو الإحساس الداخلي عند الغزالي.

فقد رأى علم الدين الحقيقي مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولم يبق إلا علم الفتوى في الأحكام الظاهرة، أو الجدل للمباهاة والغلبة والإفحام، أو السجع المزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام.

«فأما علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله في كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية، ورشدا، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً.

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً، وخطباً مدلهماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، إحياء لعلوم الدين، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين.... إلخ»[1].

كان أكبر همّ الغزالي لإحياء علم الدين والعمل به: التركيز على (علم طريق الآخرة) وما يحتاج إليه سالكه من ثقافة وخلق وعمل.

---

(١) مقدمة الإحياء.

obeikandi.com

والعجيب أنه - وهو الفقيه الكبير - سلك الفقه فى منظومة علوم الدنيا، وإن كان له ارتباط بعلم الدين[1].

كما أنه شرع يخفف من غلواء علم الكلام وأهميته، ولا يراه علما أساسيًا من علوم الدين، بل يراه علم حراسة الدين من تشويش المبتدعة، فالحاجة إليه بالنسبة للدين كالحاجة إلى الحراس والخفراء فى طريق الحج بالنسبة للحج، لوجود قطاع الطريق، فلو عدموا ما كان لهؤلاء الحراس عمل ولا مكان.

فليس هو عملاً مطلوبًا لذاته لتثقيف المسلم، بل هو مطلوب للدفاع عن العقيدة فى مواجهة شبهات المدارس العقلية، والبدع المستحدثة.

وقد أنكر على علماء عصره ومن قبلهم تكليفهم عوام المسلمين معرفة العقائد بأدلة المتكلمين، وهو تكليف بما يتعذر، ثم هو تكليف بما لا ينفع، ويكفى هولاء أدلة القرآن بما فيها من يسر ووضوح، ومخاطبة للعقل وللقلب معًا.

يقول فى (الإحياء):

«اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه (علم الكلام) من الأدلة التى ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما

---

(١) الإحياء: كتاب العلم ٧٦.

خرج عنهما، فهو: إما مجادلة مذمومة وهى من البدع... وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترّهات وهذيانات، تزدريها الطباع، وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين، ولم يكن شيء منه مألوفًا فى العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع. ولكن تغير الآن حكمه، إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، ونبغت لها جماعة لفقوا لها شبها، ورتبوا فيها كلاما مؤلفًا، فصار المحذور - بحكم الضرورة - مأذونًا فيه، بل صار من فروض الكفايات، وهو القدر الذى يقابل به المبتدع، إذا قصد الدعوة إلى البدعة وذلك إلى حد محدود.....»[1].

وذكر فى كتابه الذى ألفه فى أواخر حياته (إلجام العوام عن علم الكلام)، والذى مال فيه إلى مذهب السلف: «أن أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان. وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويستضر به الأكثرون. بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع، والرجل القوى، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»[2].

---

(١) الإحياء جـ١ ص٢٢.

(٢) إلجام العوام.

بل قال كلمته الجريئة - التى أنكرها عليه المازرى وغيره -: «من مات ولم يعلم أن البارى قديم، مات مسلمًا....»[1]!

يريد أن الصحابة وتابعيهم بإحسان لم يكونوا يلقنون مثل هذه الاعتقادات لأبنائهم وتلاميذهم، ولم يكونوا يشترطونها لصحة الإسلام أو الإيمان. فمن مات وهو خالى الذهن عنها مات على الإسلام والفطرة.

● **الغزالى ينقد المجتمع ويكشف التدين المغشوش:**

لقد أخذ الغزالى على عاتقه أن يبين معالم التدين الصحيح، الذى يأخذ بيد الإنسان إلى مرضاة الله تعالى، وسعادة الآخرة، التى هى غاية الغايات. وأن يوضح طريق هذا التدين ومراحله وعقباته وقواطعه. كما أن عليه أن يفضح التدين الزائف المدخول، وإن طلى بطلاء التقوى، وأن يكشف عن أصناف هؤلاء الذين يحسبون أنهم على شىء وهم فى الحقيقة كاذبون.

لقد غاص الغزالى فى أغوار الأنفس، كما غاص فى أعماق المجتمع، ورصد كثيراً من الظواهر الاجتماعية

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى جـ٦ ص٢٤٢.

والأخلاقية، التى نشأت عن سوء فهم حقيقة الدين وعن خداع النفس وتلبيس إبليس عليها أنها عاملة به، سائرة على دربه، أو عن غلبة الشهوات الظاهرة والخفية على النفس والسلوك، أو تأثير أصدقاء السوء، وعبيد الدنيا، أو غير ذلك.

وكان الغزالى فى نقده للأفراد والفئات الاجتماعية المختلفة نافذ البصيرة وعميق النظرة، لم يقف عند السطح، بل اتجه إلى الأعماق، فعرف كيف يشخص الداء، ويصف الدواء.

● **نقد العلماء:**

وممن ركز الغزالى عليهم نقده فى كتبه، ولا سيما (الإحياء) فى مواضع جمة منه: العلماء، ويعنى بهم العلماء المنتسبين إلى الدين، وهم فى الحقيقة (علماء الدنيا)!

وهو يحملهم مسئولية كبيرة فى فساد الملوك والحكام، وفساد العوام، ويرى أن الداء العضال فقد الطبيب، والأطباء هم العلماء، وهم أنفسهم قد مرضوا مرضًا شديداً.

ونراه هنا يتمثل بقول الشاعر:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها

فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!

وقول الآخر:

يا معشر القراء يا ملح البلد

ما يصلح الملح إذا الملح فسد؟!

وقد ذكر فى (كتاب العلم) بابا بين فيه العلامات الفارقة بين علماء الآخرة، وعلماء الدنيا، الذين سماهم (علماء السوء)، وهى اثنتا عشرة علامة[1].

لقد نقد العلماء من أهل الفقه والكلام لانشغالهم بعلم الظاهر عن علم الباطن وبعمل الجوارح عن أعمال القلوب، حتى لو سئل عن معنى شيء منها لتوقف فيه، ولو سئل عن الظهار واللعان ونحوها، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة، التى تنقضى الدهور، ولا يحتاج إلى شيء منها[2]!

وعاب الغزالى على علماء عصره إهمالهم لبعض فروض الكفايات التى لا يستغنى المجتمع المسلم عنها، مثل علم الطب.

«فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا

---

(١) انظر الإحياء جـ٣ ص٥٨ وما بعدها.

والواقع أن حملة نقد العلماء تحت عنوان علماء السوء بدأت فى القرن الثالث الهجرى على يد المحاسبى والتسترى ٢٨٣هـ، وللأخير رسائل مستقلة لهذا الغرض تعم طوائف من العلماء، بل من الزهاد وبعض الصوفية والفقهاء، فالغزالى إنما عمق هذه الجملة ووسعها.

(٢) الإحياء جـ١ ص٢١.

يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على الفقه، لا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء... فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟!»[1].

ومن الدقائق التى نبه الغزالى عليها هنا: تغير معانى الكلمات القرآنية والنبوية، عما كانت عليه فى عهد الصحابة، ومن تبعهم بإحسان، إلى معان اصطلاحية أخرى، مثل كلمات الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة. فقد غدت كلمة (الفقه) عند الخلف تعنى: معرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها. فمن كان أشد تعمقًا فيها، وأكثر اشتغالاً بها، يقال هو الأفقه[2]!.

وكان اسم الفقه فى العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا... واستيلاء الخوف على القلب.

ويستدل الغزالى لذلك بالقرآن والأحاديث وآثار السلف[3]. وكلامه هنا فى غاية النفاسة والأصالة.

---

(١) نفس المصدر. (٢) الإحياء جـ١ ص٣٢.
(٣) الإحياء جـ١ ص٣٢ وما بعدها.

ثم يحذر من الاشتغال بعلم (الخلافيات) التى أحدثت فى الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها فى السلف قال : فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الداء العضال الذى رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة .

ثم يقول : فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانًا، وزاد فيه على الأولين تصنيفًا وتحقيقًا وجدلاً وبيانًا، ثم ألهمه الله رشده، وأطلعه على عيبه، فهجره واشتغل بنفسه[1]!.

وللغزالى توجيهات رائعة للوعاظ والقصاص والمذكرين، يجب الانتفاع بها، فهو يحذر من القصص والحكايات المنحولة والمزورة، ويراها بدعة فى دين الله، وعلى الواعظ أن يرجع إلى القصص المحمودة، وما يشتمل عليه القرآن، ويصح فى الكتب الصحيحة من الأخبار .

قال : ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق، فهذه من نزغات الشيطان، فإن فى الصدق مندوحة عن الكذب، وفيما ذكر الله ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع فى الوعظ، فكيف وقد كره تكلف السجع، وعد ذلك من التصنع؟

---

(١) نفسه ص ٤١ .

قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لابنه عمر – وقد سمعه يسجع – : «هذا الذى يبغضك إلى! لا قضيت حاجتك أبدا حتى تتوب! وقد كان جاءه فى حاجة»[1].

ومن قرأ (الإحياء) وحده للغزالى، وجد فيه من النظرات العميقة والتحليلات الدقيقة، فى نقد المجتمع وبيان نقاط الضعف فيه، وعوامل الفساد فى شتى نواحيه، ما يشهد لهذا الإمام بأنه – برغم نزعته الصوفية الزهدية – ناقد اجتماعى من الطراز الأول، كما أنه عالم نفسى رفيع المقام.

والإحياء مليء بهذه النظرات والتحليلات الفاحصة الناقدة الموجهة، يجدها قارئه فى (أرباعه) الأربعة، وفى كتبه الأربعين، ولكنه يجدها أوضح ما تكون فى كتابه (ذم الغرور) وهو العاشر من ربع (المهلكات).

وفيه ذكر أصنافاً من الذين أوبقهم الغرور، وهم لا يشعرون.

فذكر من هؤلاء أرباب العلم، وأرباب العبادة والعمل، وأرباب التصوف وأرباب الأموال، وآخرين من العوام، وذكر فرق المغترين من كل صنف، وكيف خدعتهم أنفسهم،

---

(١) الإحياء جـ١ ص٢٤–٣٥ وانظر جـ٣ ص٣٩٥–٣٩٧ فى ذم الغرور.

أو زينت لهم شياطينهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة، وقد أبدع فى الوصف والتصوير هنا أيما إبداع، كما أشار إلى العلاج الواجب الاتباع، ولعل هذا الكتاب هو الذى أوحى إلى ابن الجوزى بتأليف كتابه (تلبيس إبليس).

● **نماذج رائعة من نقد الغزالى للتدين المغلوط :**

وأكتفى هنا بذكر نموذجين من نماذج نقده القوى العميق البصير، ليرى منه مقدار فقهه فى دين الله، وفهمه لدنيا الناس، وحرصه على إصلاحهم فى ظواهرهم وبواطنهم.

● **نموذج من الإخلال بالترتيب الشرعى للأعمال :**

النموذج الأول من فرق المغترين من المتدينين من أهل العبادة والعمل يقول فيه :

« فمنهم فرقة أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى التشريع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة! وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة، فقد توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية،

مع ظهور احتمال النجاسة، وكان – مع هذا – يدع أبوابًا من الحلال، مخافة من الوقوع فى الحرام.

وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشتد حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «ما تقرب المتقربون إلىّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»[1]، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور.

بل قد يتعين فى الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً.

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة

---

(١) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ: «ما تقرب إلى عبدى».

الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك»[1] فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع.

وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد (حينئذ) معصية، وإن كان هو طاعة في نفسه.

وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهو في الصحيحين بلفظ آخر من حديث أبي هريرة.

(٢) الإحياء جـ٣ ص٤٠٠ - ٤٠٤.

وهذا الذى ذكره الغزالى الفقيه فى غاية الأهمية، وما أحوج شباب الصحوة الإسلامية إلى فقهه ووعيه، وطالما دعوت منذ مدة هؤلاء الشباب والجماعات الدينية إلى ما سميته (فقه مراتب الأعمال) وإعطاء كل عمل (سعره) الشرعى، ومكانه فى سلم المأمورات والمنهيات، ولم أكن قرأت ما كتبه الغزالى هنا بهذا العمق والوضوح وعبر عنه بهذه الكلمة الناصعة: (ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور). وسيأتى فى كلامه مزيد أمثلة.

● **نموذج من إنفاق الأموال فى غير ما هو أولى بها:**

والنموذج الآخر يتمثل فى بعض أرباب الأموال، والمغترون منهم فرق: (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر، وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالأجُرّ عليها، ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها، وتعرضوا لسخطه فى إنفاقها. وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها، فإذ قد عصوا الله بكسبها

فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله، وردها إلى ملاكها، إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملاك، كان الواجب ردها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين، وهم لا يفعلون ذلك، خفية من أن لا يظهر ذلك للناس، فيبنون الأبنية بالآجر، وغرضهم من بنائها الرياء، وجلب الثناء وحرصهم على بقائها، لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لإبقاء الخير.

والوجه الثانى: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص، وقصد الخير فى الإنفاق على ا لأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا، ولا يكتب اسمه على الموضع الذى أنفق عليه ذلك، لم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك.

وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال، ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار، وقيام الليل، وختم القرآن، وهم مغرورون؛ لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، فقد

اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها، ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين؟ ولذلك قيل لبشر: إن فلانًا الغنى كثير الصوم والصلاة! فقال: المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره! وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه، ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

ومما عاب الغزالى كذلك على المتدينين من أرباب الأموال: أنهم ربما يحرصون على إنفاق المال فى الحج، فيحجون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعًا.

فلذلك قال ابن مسعود: فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب، يهون عليهم السفر، ويبسط لهم فى الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين. يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه[1].

وكأن ابن مسعود رضى الله عنه ينظر إلى زماننا هذا من وراء الغيب، ويصف ما فيه.

---

(١) الإحياء جـ٣ ص٤٠٦.

وهذه النماذج البشرية التى وجه الغزالى إليها نقده تدلنا على مدى اهتمامه بإصلاح المجتمع، بدءاً بتصحيح المفاهيم المغلوطة والتصورات الخاطئة، وبيان خداع النفس فيها، وإلقاء الأضواء على حقائقها وإظهار خباياها.

● **الغزالى ينقد سلاطين عصره ويحذر منهم:**

ولم يكن نقد الغزالى ولا نصحه موجهًا للجمهور فحسب، ولا للعلماء والمتصوفة ونحوهم من الطبقات فحسب، بل شمل نصحه وتوجيهه السلاطين والوزراء، الذين بأيديهم أمر المسلمين، وطالما ذكر أن صلاح الأمة لا يتم إلا بصلاح هاتين الفئتين: أهل العلم والفكر، وأهل السياسة والسلطة، فهما الصنفان اللذان إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، وطالما حكى قول بعض السلف: لو كان لى دعوة مستجابة لدعوتها للسلطان، فإن الله يصلح بصلاحه خلقًا كثيراً.

والناس يمنعهم من إسداء النصح وقول الحق المر أمران: الخوف والطمع، وهو فى حياته الجديدة ليس عنده ما يخاف عليه، وليس عندهم ما يطمع فيه، وقد خبت فى قلبه جمرة الحرص، وحب المال والجاه، بعد أن جعل الدنيا طريقًا لسفره لا محلاً لإقامته، واتخذ منها قنطرة يعبرها ولا يعمرها!.

زاره وزير الخليفة أنو شروان فى بيته تكريمًا له، وإقرارًا بمنزلته وفضله وما كان هذا ليحدث من هؤلاء الكبراء إلا لمثل الغزالى، ولكن أبا حامد قال له: «زمانك محسوب عليك، وأنت كالمستأجر (أى للأمة) فتوفرك على ذلك أولى من زيارتى»[1]!.

أدرك الغزالى، ببصيرته وثقافته الواسعة أن أول ما نقض من عُرا الإسلام ما يتعلق بالحكم والسياسة، وأن أبرز ما انحرف فيه الحكم عن صراط الإسلام كان فى سياسة المال.

ولهذا شدد النكير على السياسة المالية للسلاطين، وشدد على العلماء فى الدخول عليهم أو مخالطتهم، أو قبول الهدايا منهم، لأنها رشوة على الدين، ولأن أموالهم جلها سحت حرام.

وقد رد فى (الإحياء) على علماء زمانه ممن استدل بأخذ بعض السلف من عطايا الخلفاء والولاة فى زمنهم، وفرق بين الحالين بأمرين:

أحدهما - كما يقول بصريح العبارة - : أن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا والحلال

---

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ٩ ص١٧٠.

هو الصدقات والفيء، والغنيمة، ولا وجود لها! وليس يدخل منها شيء في يد السلطان، ولم يبق إلا الجزية، وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه، والوفاء له بالشرط، ثم إذا نسب ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره.

الثاني: أن الظلمة في العصر الأول – لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين – كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشون مجالسهم، ولا يكثرون جمعهم، ولا يحبون بقاءهم. بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم، ولم يكن بأخذهم بأس.

فأما الآن، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن

طمعوا فى استخدامهم والتكثير بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، والتجمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء، والتزكية والإطراء، فى حضورهم ومغيبهم، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد فى الخدمة ثانيًا، وبالثناء والدعاء ثالثًا وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعًا، وبتكثير جمعه فى مجلسه وموكبه خامسًا، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسًا، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعًا، لم ينعم عليه بدرهم واحد، ولو كان فى فضل الشافعى رحمه الله مثلاً: فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم فى هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعانى، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه؟! فمن استجرأ على أموالهم، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاس الملائكة بالحدادين[1]!

ويعلق الأستاذ الندوى على هذه الكلمة النابضة بالحيوية والقوة فيقول: «وقيمة هذه الكلمة الجريئة لا تعرف إلا فى جو الحكومات الشخصية (الفردية) الرهيب، حيث كانت كلمة واحدة تصدر من عالم أو مؤلف فى نقد ملك أو حاكم تطيح بحياته»[2]!.

---

(١) الإحياء جـ٢ ص١٣٩.

(٢) رجال الفكر والدعوة ص٢٣٧.

ولقد عقد الغزالى بابا خاصًا فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم، وحكم غشيان مجلسهم والدخول عليهم والإكرام لهم، قال فيه:

«اعلم أن لك من الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال: (الحالة الأولى) وهى شرها أن تدخل عليهم، (والثانية) وهى دونها أن يدخلوا عليك، (والثالثة) وهى الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يروك.

أما الحالة الأولى: وهى الدخول عليهم فهو مذموم جداً فى الشرع، وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار...».

وبعد أن ذكر جملة منها قال:

«فهذه الأخبار والآثار تدل على ما فى مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد، ولكن نفصل ذلك تفصيلاً فقهيًا نميز فيه المحظور عن المكروه والمباح، فنقول: الداخل على السلطان متعرض لأن يعصى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته، وإما بقوله، وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور.

أما الفعل: فالدخول عليهم فى غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام.

فأما السكوت: فهو أنه سيرى فى مجلسهم من الفرش الحرير وأوانى الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام، وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك فى تلك السيئة. بل يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع ذلك حرام. بل يراهم لابسين الثياب الحرام، وآكلين الطعام الحرام، وجميع ما فى أيديهم حرام، والسكوت على ذلك غير جائز، فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم، ويثنى عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل، بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار فى وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة، والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول عمره وبقائه، فإنه فى الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

أما الدعاء له: فلا يحل إلا أن يقول: أصحك الله، أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك فى طاعته، أو ما يجرى هذا المجرى، فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما فى معناه فغير جائز، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه، فيكون به كاذبًا ومنافقًا، ومكرمًا لظالم. وهذه ثلاث معاص، فإن جاوز ذلك إلى التصديق له

فيما يقول، والتزكية والثناء على ما يعمل: كان عاصيًا بالتصديق وبالإعانة، فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية، وتحريك الرغبة فيه، كما أن التكذيب والذم والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه. والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة.

الحالة الثالثة: أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يروه، وهو الواجب، إذ لا سلامة إلا فيه، فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، ولا يحب بقاءهم، ولا يثنى عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم وذلك إذا خطر بباله أمرهم، وإن غفل عنهم فهو الأحسن»[1] ا.هـ.

● **الغزالى يواجه الحكام بقول الحق:**

ولم يقف الغزالى عند حد النقد لحكام عصره، والتنديد بسياساتهم، وظلمهم لرعيتهم فى كتبه ومصنفاته، وخاصة (الإحياء). بل تجاوز ذلك إلى مواجهتهم بالنصح وإن كان صعبًا، وقول الحق وإن كان مرا، يشافههم حينا، ويكتب إليهم أحيانًا، لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا نقمة ظالم.

---

(١) الإحياء جـ٢ ص١٤٢ - ١٤٦.

ولقد سجل التاريخ نقده للسلطان السلجوقى سنجر بن ملك شاه، الذى كانت خراسان كلها تحت حكمه حين قال له: «واأسفاه! إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية»[1]!

وكذلك بعث إلى أخيه الأكبر محمد بن ملك شاه – وكان أكبر ملوك عصره – رسالة ذكره فيها بمسئوليته، وحذره من عقاب الله وغضبه، ولفت نظره إلى إصلاح المملكة.

وبعث بعدد من الرسائل إلى (الوزراء) الذين كانوا يعتبرون فى ذلك العصر أعمدة السلطة التنفيذية، بل كانوا هم الحكام الفعليين. وكانت رسائله إليهم بالفارسية التى يتقنها ويتقنونها.

وهو فى هذه الرسائل يجمع بين النقد والوعظ معًا، فهو ينكر ما يجب إنكاره مثل الإسراف فى المظاهر، وادعاء الألقاب الفخمة، وإهمال مصالح الناس، وفى الوقت نفسه يرغب ويرهب، ويخوف من الموت، وحساب الله، وعذاب الآخرة.

---

(١) عن رسائل الغزالى بالفارسية –نقلاً عن رجال الفكر والدعوة ص٢٣٧.

كما أن هذه الرسائل - كما يقول الأستاذ الندوى - مثال للشجاعة والصدع بالحق، ومثال لقوة الإنشاء، وبلاغة التعبير.

يقول للوزير فخر الملك: «صل ركعتين فى خلوة، وتضرع إلى الله فى سجودك وقل: يا ملكا لا يزول ملكه، ارحم ملكا قارب زوال ملكه، وأيقظه من غفلته ووفقه لإصلاح رعيته»!.

ومما قال له:

«اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابًا بسبب المجاعات والظلم، ولما بلغ الناس توجهك من أسفرائن ودامغان خافوا، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم، لما كانوا يتوقعون من إنصاف منك، واستطلاع للأحوال، ونشاط فى الإصلاح، أما وقد وصلت إلى طوس، ولم ير الناس شيئًا فقد زال الخوف، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار، وتشجع الظالمون، وكل من يخبرك من أخبار هذه البلد بخلاف ذلك، فاعلم أنه عدو دينك».

«واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب، وقد

نصحت للعميد كثيراً، ولكنه لم يقبل النصيحة، وأصبح عبرة للعالمين، ونكالا للآخرين، اعلم يا فخر الملك! أن هذه الكلمات لاذعة، مرة، قاسية، لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء، فاقدرها قدرها، فإنك لم تسمعها من غيرى، وكل من يقول غير ذلك، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق».

وكتب إلى مجير الدين: «إن إغاثة الخلق واجبة على الجميع، فقد تجاوز الظلم عن الحدود، ولم أستطع أن أشاهد هذا الظلم، فهاجرت من طوس ولى سنة، حتى لا أشاهد هؤلاء الظلمة الذين لا يعلمون رحمة، ولا يراعون حرمة، وقد ألجأتنى بعض الضرورات إلى زيارة البلد، فوجدت الظلم مستمراً لم ينقطع».

ويقول فى هذه الرسالة: «لقد بلغت المدية العظم، وبلغ السيل الزبى، وكان المسلمون يستأصلون، وإن ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد - أمانة من الملك - أخذوا أضعافها من الرعية، وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ولم يصل منها شيء إلى السلطان»[1].

---

(١) رسائل الغزالى بالفارسية نقلاً عن المصدر السابق ص٢٣٨-٢٣٩.

● **تأثير الغزالى فى محيط الأمة الإسلامية :**

على أن الغزالى لم يتبوأ مكانته بين أمة الإسلام لمجرد عمله العلمى على أهميته وضخامته ولا لمجرد تصديه لفضح الخطر الباطنى، وللغزو الفكرى المتمثل فى فلسفة اليونان، وهدمه الصنم الكبير بضربة ، سمع دويها فى المشرق والمغرب. لم يتبوأ مكانته بهذا فحسب، بل تبوأها – بالإضافة إلى ذلك – بما وهبه الله من إشعاع روحى، وتأثير وجدانى، ترك أثره فى جماهير الأمة ا لمسلمة على طول القرون إلى اليوم.

لقد كان قبل الغزالى عمالقة كبار من أئمة الإسلام، مثل شيخه إمام الحرمين وشيخ شيخه القاضى الباقلانى وشيخ الباقلانى أبى الحسن الأشعرى، وكلهم أئمة هدى، ومصابيح دجى، ولكن تأثيرهم كان فى محيط الخواص، لم يتعدهم إلى محيط الأمة العام، الذى أثر فيه الغزالى خريج مدرستهم، وناشر علمهم وأفكارهم.

ترى ما السر وراء هذا التأثير الذى امتد عرضًا فشمل أقطارالإسلام، وطولا فشمل القرون والأعصار إلى اليوم، وعمقًا، فأثر فى العقائد والأفكار والأخلاق والأعمال؟.

قد يقال : إن ذلك يرجع إلى قوة بيان الغزالى ووضوحه

وسلاسته التى تمثل السهل الممتنع، هذا البيان الذى تتجسد فيه القدرة على (تبسيط) المعقدات وتقريب أعوص المسائل إلى الأذهان، بحسن الشرح وضرب الأمثال، وجودة الترتيب الذى نجد فيه مهارة المعلم، وحرارة الداعية حتى قيل بحق: إنه معلم الجماهير.

وقد يقال: إن ذلك يرجع إلى عقل الغزالى الذى استوعب ثقافة عصره العقلية والشرعية، ثم هضمها وتمثلها، وأخرج منها من بين فرث ودم لبنا خالصًا سائغًا للشاربين.

وقد يقال: إن شهرته فى عالم العلم، ودنيا الفكر أولاً، ثم فى عالم المجاهدة الروحية ثانيًا، فتحت له العقول والقلوب، فأقبلت على آثاره، إقبال الظمآن على المورد العذب.

قد يقال هذا وقد يقال أكثر منه، وكله له نصيب من الصحة.

بيد أن وراء هذا الإقبال من الأمة على الغزالى وآثاره – بالإضافة إلى ما ذكر – سرًا آخر، يتمثل – فيما أرى – فى إخلاصه وتجرده لله، وفنائه عن حظوظ نفسه فى مرضاة ربه، والكلام إذا صدر من القلب نفذ إلى القلوب، وإذا خرج من طرف اللسان لم يتجاوز الآذان، وليس النائحة كالثكلى.

كان الإخلاص أكبر هم الغزالى، وقد أنضى راحلة عمره فى البحث عنه، حتى ظفر به، فيما يظهر لنا من سيرته. والله أعلم بالسرائر.

وفى مرض موته، وقبيل رحيله من هذه الدنيا، سأله بعض أصحابه: أوصنى. فأوصاه بكلمة واحدة: عليك بالإخلاص! فلم يزل يكررها حتى لحق بربه[1].

وبالنسبة لى كان الإمام الغزالى هو أول من تعرفت عليه من أئمة الإسلام، عن طريق كتابين من كتبه الجمة: كتاب صغير هو (منهاج العابدين) أخذته من قريب لى، وكتابه الشهير: (إحياء علوم الدين) كان يقتنيه جار لنا، كان على شىء من الفقه والتصوف.

كان ذلك فى وقت مبكر من حياتى، أى فى الرابعة عشرة من عمرى تقريبًا، وأنا أخطو الخطوات الأولى إلى الأزهر الشريف، ملتحقًا بمعهد طنطا الدينى، أما ابن تيمية ومدرسته التجديدية الشاملة، فلم أتعرف عليه إلا بعد ذلك.

ومن الحق أن أقول: إن الغزالى قد أثر فى عقلى وقلبى

---

(١) ذكر ذلك ابن الجوزى فى خاتمة ترجمته له فى كتابه (المنتظم) جـ٩ ص ١٧٠، ط حيدر آباد، الهند.

معًا، فاستفدت منه لنفسي أولًا، وللناس بعد ذلك، وكثيرًا ما كنت أقرأ (الإحياء) فأشعر بحرارة الإخلاص لدى مؤلفه تهز كياني، فتدمع عيني، ويخشع قلبي، وتصغر في عيني الدنيا، وتتجسد أمامي صورة الآخرة، ولا أحسب ذلك إلا أثرًا لصدق المؤلف مع الله، وهذه إحدى مزايا الغزالي الكثيرة: الربانية المتجردة لله عز وجل، التي تتمثل قول الله سبحانه: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

لقد عاش الغزالي حياته أول الأمر كما يعيش جل علماء زمانه، وعلماء زماننا، أكبر همه الشهرة والجاه والمحمدة عند الناس، والتفوق على الأقران، والغلبة في المناظرة، وقد أدرك من ذلك حظًا عظيمًا، ثم انقشعت الغشاوة عن عين بصيرته، فاكتشف أن هذا كله سراب بقيعة ﴿**يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**﴾، فصمم على أن ينسحب من هذه الحلبة الصاخبة، وينخلع من هذه الحياة الزائفة في اعتقاده، التي ظاهرها الدين، وباطنها الدنيا، وأن يعيش حياة أخرى، قوامها الزهد والتجرد والإخلاص لله، حياة يرى أن علمه وتعليمه ومحياه ومماته فيها لله رب العالمين لا شريك له،

وهكذا كما قال التاج السبكى : « ترك الدنيا وراء ظهره وأقبل على الله يعامله فى سره وجهره »[١].

وقد سجل الغزالى قصة حياته الفكرية والنفسية بقلمه البليغ، تسجيلاً مؤثراً بما فيه من وضوح وصدق، فى كتابه الفريد (المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذى العزة والجلال) الذى يعد -- على وجازته -- من أهم ما خطه قلم الغزالى، وما أنتجه فكره المعطاء، والذى يقول عنه أستاذنا المدعو له بالرحمة الدكتور محمد يوسف موسى : « هذا الكتاب لا نعرف أى مفكر أو فيلسوف كتب مثله أو ما يدانيه، فهو اعترافات بخلجات نفسه، وحركات قلبه وعقله، حتى وصل مما أراد إلى خاتمة المطاف »[٢].

وكان قد تأكد له بعد رحلته الحافلة فى البحث عن اليقين: أن السعادة الحقيقية هى سعادة الآخرة، وأن لا مطمع فيها إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافى عن دار الغرور، والإنابة

---

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص١٩٣ .

(٢) فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص١٣٠ وقال فيه المستشرق الإنجليزى نيكلسون : وقد خلف لنا صفحات لا تقل فى جمالها عن كتاب نيومان المسمى (أبولوجيا) (فى التصوف الإسلامى ص٨٣) .

إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن المال والجاه، والهرب من الشواغل والعلائق.

يقول: «ثم لاحظت أحوالى، فإذا أنا منغمس فى العلائق، وقد أحدقت بى من الجوانب، ولاحظت أعمالى - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة.

ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت! فتيقنت أنى على شفا جرف هار، وأنى أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافى الأحوال»[1].

ظل الغزالى مترددًا بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة، قريبًا من ستة أشهر، من أول رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، حتى جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، فلم يعد قادرًا على الكلام ولا على هضم الطعام، وساء حاله، وضعف بدنه، فلجأ إلى الله لجوء المضطر، أن يسهل عليه الإعراض عن حياته هذه، فأجابه الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وترك بغداد وأستاذية المدرسة النظامية بها، وساح فى أرض الله

(١) المنقذ ص١٣٩، ١٤٠.

حاجًا أولا، ثم متنقلا بين دمشق والقدس، وغيرهما من المدن حينًا وبين البرارى والقفار حينًا آخر.

هكذا اعتزل الغزالى دنيا الناس - بما فيها تدريس العلوم الشرعية - لما رأى نيته فيها مشوبة غير خالصة لله تعالى، إنما هو طلب الجاه، والشهرة وانتشار الصيت، وكان ذلك نتيجة تأمل فاحص فى أعماق نفسه، وتحليل صادق لدوافعها، فلم يخدعه الظاهر عن الباطن، ولا الصورة عن الحقيقة، ولا العنوان عن المضمون.

ولم يكن هذا بالأمر الهين على من عاش ملء السمع والبصر، تشير إليه الأصابع وتشرئب نحوه الأعناق، وتتحدث عنه المجالس، وتسير بذكره الركبان، يعظمه العامة والخاصة، ويذعن له العلماء، ويقربه السلاطين والوزراء - أو كما قال ابن السبكى: «عظيم الجاه،زائد الحشمة، عالى الرتبة، مسموع الكلمة مشهور الاسم، تضرب به الأمثال وتشد إليه الرحال»[1] - لولا إرادة صادقة فى ابتغاء ما عند الله، واعتزال ما عند الناس، إرادة لا تتهيأ إلا للأفذاذ الذين أخلصوا دينهم لله، وأخلصهم الله لدينه، مع لجوء إلى الله واعتصام به، وابتهال إليه، أن يسهل على قلبه الإعراض عن الدنيا وزينتها، من الجاه

(١) طبقات الشافعية جـ٦ ص١٩٧.

والمال والولد والأصحاب، وقد علم الله ما فى قلبه فاستجاب له.

اعتزل الغزالى الناس والحياة بما فيها من جاه، وشهرة طبقت الآفاق، مخلداً إلى حياة الزهد والخشونة، منكبًا على مجاهدة النفس، والارتفاع بها من جاذبية الطين والحمأ المسنون، إلى أفق يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾ وقوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته».

حكى لنا الإمام القاضى أبو بكر بن العربى كيف لقيه فى هذه الفترة[1] فقال:

رأيت الغزالى فى البرية، وبيده عكازه، وعليه مرقعة، وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت رأيته، ببغداد يحضر مجلس درسه، نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فقلت له: يا إمام، أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا؟ قال: فنظر إلىّ شزراً، ثم قال: لما طلع بدر السعادة فى سماء الإرادة:

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل

وعدت إلى تصحيح أول منزل!

---

(١) ذكرها ابن العماد فى (الشذرات) جـ٤ ص١٣.

ونادت بى الأشـواق : مـهـلا فـهـذه

منـازل من تـهـوى، رويدك فـانزل !

استمرت عزلة الغزالى نحو عشر سنوات، تاركًا للناس فيها دنياهم التى يتصارعون عليها حتى التعليم وتدريس العلوم الشرعية، الذى رأى أن نيته فيه لم تكن خالصة لوجه الله تعالى.

ولكن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فقد بدأ الغزالى نفسه الذى قطع نفسه عن الشواغل والعلائق يفكر فى العودة، والقيام بواجب الدعوة والحركة لإحياء الدين.

تأمل الغزالى المجتمع من حوله، فرأى الضعف أو الفتور فى الإيمان بأصل النبوة ثم فى حقيقة النبوة، ثم فى العمل بما شرعته النبوة، وتحقق شيوع ذلك بين الناس، ونظر إلى أسبابه، فوجد بعضها يأتى من قبل الفلسفة والخائضين فيها، وأن الدين للعوام، والفلسفة للخواص... وبعضها من قبل أدعياء التصوف الذين يزعمون أنهم بلغوا مبلغًا ترقوا فيه عن الحاجة إلى العبادة.. وبعضها من علماء السوء الذين نفروا الناس عن الدين باتباعهم نزغات الشياطين، وأهواء السلاطين، بالإضافة

إلى فتنة الباطنية وما أثارته من شكوك وشبهات، وما أغرت به من مطامع وشهوات.

رأى الغزالى فى ذلك الوقت أن خروجه من الصومعة متعين عليه محتوم، «فما تغنى الخلوة، والعزلة، وقد عم الداء ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك» وهو يرى نفسه أهلا لكشف شبهات هؤلاء جميعًا بكل يسر، حتى إنه يرى فضحهم أيسر عنده من شربة ماء على حد تعبيره رضى الله عنه.

لقد خرج الغزالى من عزلته بعد تردد وتفكير طويل، ومشاورات مع أصحاب القلوب والبصائر، وكلهم أشار عليه بترك صومعته، والرجوع إلى الإفادة والتدريس، لاعتبارات شرعية مقنعة، ورؤى منامية مبشرة، واستشراف إلى ما وعد الله سبحانه على لسان رسوله بإحياء دينه على رأس كل مائة سنة، وهو الآن على مشارف المائة الخامسة.

وقد عاد الرجل، ولكن بقلب غير القلب، وروح غير الروح وهو يقول عن نفسه: «وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت! فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه، وأدعو إليه

بقولى وعملى، وكان ذلك قصدى ونيتى، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى، ويعلم الله ذلك منى.

وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضى؟ .. ولكنى أؤمن إيمان يقين ومشاهدة، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وأنى لم أتحرك، ولكنه حركنى، وأنى لم أعمل، ولكنه استعملنى، فأسأله أن يصلحنى أولا، ثم يصلح بى، وأن يهدينى، ثم يهدى بى، وأن يرينى الحق حقًا، ويرزقنى اتباعه، ويرينى الباطل باطلا ويرزقنى اجتنابه»[1].

إن قصة تطليق الغزالى للدنيا ومناصبها، وقد جاءت تسعى إليه ركضا، وقصة مجاهدته وكفاحه فى سبيل وصوله إلى اليقين، والقرب من الله سبحانه، كان لها تأثيرها البالغ فى الحياة الإسلامية فكراً وشعوراً وسلوكًا، فإن المرء يؤثر بحاله أكثر مما يؤثر بمقاله، وليس من المبالغة قول بعض الحكماء: حال رجل فى ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل!

---

(١) المنقذ ص١٥٧.

ومن عجائب الأقدار أن الرجل الذى فر إلى العزلة، بُعدا بنفسه عن طلب الشهرة وانتشار الصيت، وحب الجاه والمنزلة فى قلوب الخلق – هذا الرجل غدا اسمه من أشهر الأسماء فى تاريخ العلم والفكر والزهد بين المسلمين وغيرهم، إلى اليوم!

أما ما خلفه من ثروة علمية، فحدث ولا حرج، ويكفى منها (الإحياء) الذى لا يعرف كتاب بعد القرآن والصحاح – أثر فى حياة المسلمين مثله، حتى قيل فيه: كاد الإحياء يكون قرآنًا!

● تأثير الغزالى خارج العالم الإسلامى:

لم يقف تأثير الغزالى عند حدود العالم الإسلامى، بل تعداها إلى عالم الغرب، ووضح أثره – كما بين (بالاسيوس) – فى لاهوتيى اليهود الذين اعتمدون على الغزالى فى كثير من آرائهم، وذكر أن فى كتبهم المشهورة مقاطع كاملة، بل صفحات من كتب الغزالى: مقاصد الفلاسفة، والتهافت، والمنقذ، والإحياء، والميزان وغيرها، وذلك بعد ما ترجموها فى القرن الثالث عشر للرد على فلاسفة عصرهم، فمهدوا لنشر كتبه فى أوروبا، وكثر الإقبال عليها[1].

(١) دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها، لعبده الشمالى ص٥٥٣.

obeikandl.com

كما أثر الغزالى فى كثير من مفكرى النصرانية فى أوروبا، الذين استفادوا من كتبه واستندوا إلى آرائه، مثل القديس الفيلسوف الأكوينى، وباسكال وغيرهم[١].

وحسبنا أنه كان له تأثير على أعظم شخصية فلسفية غربية فى العصر الحديث، أعنى (ديكارت) الذى يعد أبا الفلسفة الحديثة، وقد بدأ أثر الشك المنهجى عند الغزالى – الشك الذى يراد به الوصول إلى اليقين – واضحًا فى منهج ديكارت وقد دلت دراسات الدارسين إلى التشابه الكبير بين المنهجين، واستنتجوا أن يكون اللاحق قد تأثر بالسابق، لاسيما أن كتب الغزالى قد ترجمت إلى أوروبا... ولكن قد أثبت البحاثة التونسى الأستاذ عثمان كعاك – رحمه الله – أنه زار مكتبة (ديكارت) فى باريس، فوجد فيها نسخة مترجمة من كتاب (المنقذ من الضلال) للإمام الغزالى، وقد علق ديكارت بخطه على الأجزاء الخاصة بالشك قائلاً: « تنقل هذه إلى منهجنا »[٢].

---

(١) المصدر نفسه ص٥٥٤، وانظر: تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور أبو ريان ص٥٠٩.

(٢) نقل ذلك عنه الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، انظر: المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت، مقدمة الطبعة الثانية للدكتور محمود زقزوق، ص، مكتبة الأنجلو القاهرة.

وقد أعجب به كثير من المستشرقين، حتى قال فيه (رينان) ما ذكرناه من قبل وقال (مونخ) الألمانى : « إن عظمة الغزالى فى نظرنا ترتكز على شكه الذى بوأه مركزاً مرموقًا فى تاريخ فلسفة الغرب » .

وقال (كارا دى فو) الفرنسى : « أنه سبق (كانت) إلى نظرية (عجز العقل)، وأن كتاب (التهافت) خير ما وضع لدرس قيمة العقل »[1] .

هذه لمحات من سيرة الغزالى العامرة الخصبة، وجهوده الحافلة المتنوعة فى خدمة الدين، ومقاومة خصومه، وإحياء علومه، وتجديد أثره فى العقول والمشاعر والعزائم، حتى استحق أن يطلق عليه (حجة الإسلام) .

* * *

(١) دراسات فى تاريخ الفلسفة - مصدر سبق ذكره .